مقدمة قصيرة جدًّا

بول بان

علم الآثار

ترجمة إبراهيم سند أحمد

علم الآثار

مقدمة قصيرة جدًّا

تأليف
بول بان

ترجمة
إبراهيم سند أحمد

مراجعة
هاني فتحي سليمان

هنـــداوي

علم الآثار

بول بان

Archaeology

Paul Bahn

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩ ٣٥٠٥ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ٢٠١٢.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بالترجمة العربية لنص هذا الكتاب محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لدار نشر جامعة أكسفورد.

Copyright © Paul Bahn 2012. Archaeology: A Very Short Introduction was originally published in English in 2012. This translation is published by arrangement with Oxford University Press. Hindawi Foundation is solely responsible for this translation from the original work and Oxford University Press shall have no liability for any errors, omissions or inaccuracies or ambiguities in such translation or for any losses caused by reliance thereon.

المحتويات

تمهيد	٩
مقدمة	١١
١- أصول علم الآثار وتطوره	١٧
٢- التأريخ	٢٥
٣- التكنولوجيا	٣١
٤- كيف كانت معيشة الناس قديمًا؟	٣٩
٥- كيف كان تفكير الناس قديمًا؟	٥١
٦- الاستيطان وبناء المجتمعات	٦٣
٧- كيف حدثت التغيرات، ولماذا؟	٧٣
٨- الأقليات والجمعيات النسائية	٨٣
٩- تقديم الماضي إلى الناس	٩٥
١٠- مستقبل الماضي	١٠٥
قراءات إضافية	١١٥
قائمة الصور	١١٧

إهداء إلى آن وستيف وجيمس وفيليب.

تمهيد

منذ قرابة ٥٥ عامًا، نشر فير جوردون تشايلد — وهو من أوائل المؤرخين المختصين في حقبة ما قبل التاريخ، كما أنه من أهم الأشخاص الذين سلكوا منحًى غير تقليدي في علم الآثار — كتابًا بعنوان «مقدمة قصيرة في علم الآثار». ولا نقول إن الكتاب الذي بين أيديكم ندٌّ لذلك العمل السابق إلا في إيجازه.

في الحقيقة، لا يهدف هذا الكتاب الموجز إلا إلى فتح الشهية عبر تناول بعض الأساسيات عن علم الآثار، بغرض تحفيز القارئ إلى التعمُّق أكثر في مؤلفاته الغزيرة، أو إلى إجراء بعض الأبحاث أو الأعمال الميدانية، أو إلى اتخاذ قرار بحضور دورة دراسية في هذا التخصص إن كان القارئ لا يزال طالبًا. قد لا تجد الوظيفة في انتظارك بعد الانتهاء من هذه الدورة الدراسية، ولا حتى بعد نيل درجة الدكتوراه، ولكن في هذه الآونة، لم تعد حتى المجالات «الآمنة»، مثل المجال المصرفي، تضمن الحصول على وظيفة مدى الحياة، أرجو أن يكون هدفك الأول هو الاستمتاع، وكما قال الراحل جلين دانييل، فإن القيمة الجوهرية في علم الآثار هي المتعة التي يشعر بها المهتمون به. لا شك في أنك قد تحتاج إلى نقل أجزاء كثيرة من تُربة الأرض وغربلتها، وإلى تذكُّر بعض التواريخ الصعبة الحفظ، والتكلف في نُطق بعض المصطلحات الغريبة، ومحاولة فهم النظريات المعقدة وكأنك تتحدى مُصارعي السومو؛ ولكن في الوقت نفسه ستنتقل إلى عالم من الفنون والقطع الأثرية، والمعابد والأدوات، والمقابر والكنوز، والمدن المفقودة، والمخطوطات الغامضة، والمومياوات، وبقايا الماموث ... وعلى الرغم من أن بعض القدامى في المجال يزدرون هذه العناصر أو ينكرونها بحجة أنها مبتذلة أو لا تمثل علم الآثار الحديث، فإنه سيكون مستغربًا من المحدَثين ألا ينجذبوا إلى هذه العناصر المذهلة والرائعة.

إذا سألت أيًّا من المنتمين إلى أوساط المثقفين في أي بلد في العصر الحالي أن يسمي عالم آثار على قيد الحياة، فلا أحسب أن أحدًا يضرب لك مثالًا واحدًا، اللهم إلا شخصية إنديانا جونز الخيالية. وهذا يدل على تأثير هوليوود، وعلى عدم الوعي بعلماء الآثار في الوقت الحالي وبإسهاماتهم. الشخصيات العظيمة في الماضي لم تعُد بيننا، وربما لن نرى مثلها أبدًا، ولكن هناك جيشًا من المتخصصين وغير المتخصصين أصحاب الأفكار غير التقليدية، نوعًا ما، الذين يكرسون أنفسهم ويجدُّون في العمل حول العالم كي يُحللوا الماضي تحليلًا منطقيًّا. وأنت يمكنك الارتقاء إلى ما ارتقوا إليه، وهذا الكتاب قد يساعدك في أن تقرر هل أنت أهلٌ لهذه المهمة أم لا. وإذا كنت تريد التمرُّس في علم الآثار، فأمامك ثلاث طُرق أساسية، وهي: حضور دورة دراسية في علم الآثار بالجامعة، أو حضور دورة دراسية في دراسات المتاحف، أو العثور على وظيفة في وحدة إقليمية أو في إدارة الموارد الثقافية (في أمريكا) لاكتساب الخبرة العملية. ربما لا تصير عالم آثار عظيمًا، ولكن إن لم تستطِع بلوغ حُسن العمل، فتعلَّم أن تستمتع بالذي تؤديه، حتى وإن لم تؤدِّه على النحو الأمثل.

نقطة أخيرة، لا تتوقع أن تصير ثريًّا.

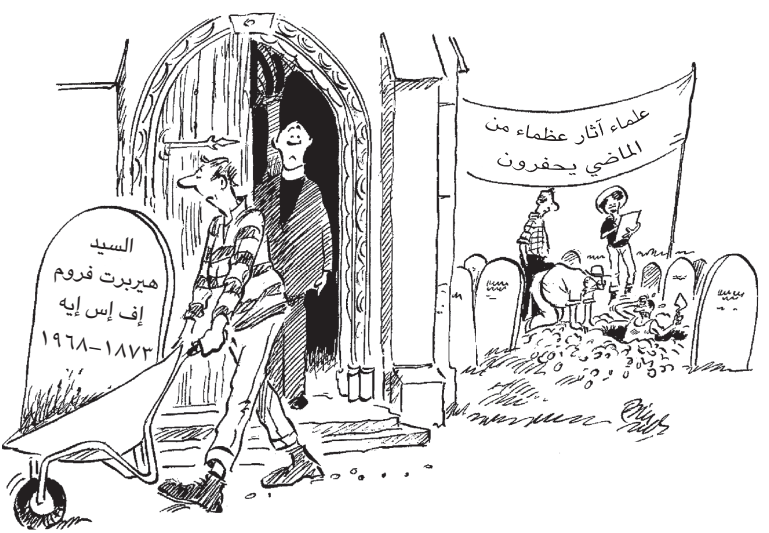

شكل ١

مقدمة

قليلة هي الهوايات التي تُكسِب الإنسانَ صحة جيدة وملَكة فلسفية، ومن تلك الهوايات علم الآثار لعصور ما قبل التاريخ.

(صحيفة «ذا تايمز»، ١٨ يناير ١٩٢٤)

في رواية «الشعب السري»، وهي من أوائل روايات جون ويندام الأقل شهرة، توجد شخصية تقول: «إنه عالم ... عالم ... على أي حال، هو يُنقب عن أشياء لا تُحقق منفعة عملية لأي شخص.» لا شك أن هذا رأي متطرف — كما أنه منتشر — بشأن جهود علماء الآثار. وعلى الجانب الآخر، قد يتغنى أحد، مثل كارستن نيبور، إذ يقول: «من يعيد الأشياء المطمورة إلى الوجود ينعم وكأنه خَلَقها.» ومؤكد أن بعض علماء الآثار يفخرون بما «يعيدونه إلى الحياة»، ويعتبرون أنفسهم يشبهون الخالق من عدة جوانب لهذا السبب.

عادةً ما يربط عموم الناس بين علم الآثار والحَفر وكأنه جلُّ ما يفعله المشتغلون في مجال الآثار طيلة الوقت؛ ولا تبرح المجلة البريطانية الساخرة «برايفت آي» تصور عالم الآثار في صورة «رجل ذي لحية واقف في حفرة». وعادةً ما تُصوِّر أفلامُ الكرتون علماء الآثار في صورة أناس عتيقي الطراز، ينبذون الحداثة ويؤثِرون عليها التراث القديم؛ مثل الأواني الفخارية والأدوات المصنوعة من العظام. لا شك أن هذه الصورة صحيحة، ولكنها لا تُبرز إلا جزءًا ضئيلًا للغاية عن علم الآثار. على سبيل المثال، بعض علماء الآثار لا يشتغل بالتنقيب مطلقًا، وقِلة منهم يقضون أوقاتهم في أعمال التنقيب.

إذن، ما هو المعنى الدقيق لعلم الآثار؟ تنحدر كلمة archaeology (وتعني علم الآثار) من الكلمة اليونانية arkhaiologia (وتعني الحديث عن الأشياء القديمة)، ولكنها أصبحت تعني دراسة ماضي الإنسان من خلال الآثار الملموسة التي لا تزال باقية حتى الآن. لكن

حريٌّ بنا التأكيد على مصطلح «ماضي الإنسان»؛ لأن علماء الآثار لا يدرسون الديناصورات أو الصخور في حد ذاتها، وهذا يناقض الاعتقاد السائد بين العامة، والذي روَّجت له أفلام فلينتستون الكرتونية وصور البكيني الفرائي التي لا تُنسى لراكيل ويلتش. بل إن هذه المجالات يهتم بها علماء الحفريات وعلماء الجيولوجيا؛ إذ إن الديناصورات انقرضت منذ عشرات الملايين من السنين حين ساد البشر الأوائل الأرض.

يبدأ علم الآثار فعليًّا مع ظهور أول «مصنوعات يدوية» (أدوات) يمكن التعرف عليها؛ وبناءً على الأدلة الحالية، فقد وُجدت هذه الأدوات في شرق أفريقيا منذ قرابة ٢,٥ مليون سنة؛ ويمتد هذا العلم حتى العصر الذي نعيشه. فالشيء الذي رميته في المرأب بالأمس — بغضِّ النظر عن مدى عدم نفعه أو قبحه أو سوئه — قد أصبح جزءًا من السجل الأثري الحديث. وعلى الرغم من أن غالبية علماء الآثار يدرسون الماضي السحيق (الفترات التي يعود تاريخها إلى مئات، أو ربما آلاف، السنين)، هناك أعداد متزايدة ممن يتجهون إلى الفترات التاريخية القريبة وحتى الظواهر الحديثة؛ على سبيل المثال، انجذب علماء الآثار في الآونة الأخيرة إلى دراسة موقع التجارب النووية في نيفادا، وأكواخ مستكشفي القطب الجنوبي، وحتى المخابئ النازية وجدار برلين!

في أواخر القرن السادس عشر، وصف ويليام كامدن — وهو أول جامع قِطَع أثرية إنجليزي — دراسة القِطَع الأثرية بأنها «الفضول لمعرفة الماضي»؛ بعبارة أخرى، الرغبة في معرفة الماضي، ولا شك أن العديد من المهتمين بالمجال يتمتعون بهذا الفضول بكل ما تحمله الكلمة من معنًى. إنه موضوع يشبه المغناطيس لأصحاب الاهتمامات غير المألوفة، غير أن اتساع نطاقه يضمن عثور جميع الأطياف على مبتغاها. فالشخص الانطوائي المحب للعُزلة يجد مبتغاه في غرفة مليئة بالغبار وهو يجمع العملات القديمة أو أجزاءً من الأواني أو الأحجار، وكذلك الشخص المنفتح يجد مبتغاه في قضاء أسابيع في مكان منفتح وسط فريق ضخم أفرادُه مفعَمون بقدر هائل من الحماسة.

من أسباب البهجة في علم الآثار أنه يضع العالَم بأكمله بين يديك، شريطة أن تتمكن من جمع التمويل اللازم للعمل. فبوُسعك أن تختار بقعة من الأرض أو أي حقبة تاريخية للتركيز عليها؛ ستجد دومًا مسألة أثرية بحاجة إلى الدراسة، وقد تعكُف على دراسة هذه المسألة في أدغال كثيفة أو كهوف مظلمة أو صحارٍ حارقة أو جبال جليدية. بل إنك لست مقيدًا بالبحث في اليابسة؛ بوسعك أن تصبح عالم آثار لعالم ما تحت البحار، أو تتخصص في التصوير الجوي، إذا كانت هذه اهتماماتك. وبما أن هذا المجال يضم بين دفَّتيه كل

حقب التاريخ، فإنه تتوافر أمامك سلسلة كاملة تختار منها، وهذه السلسلة تبدأ من البقايا الحفرية للإنسان، مرورًا بحقب العصور الوسطى، ووصولًا إلى العصور الصناعية، وبذلك تتاح أمامك دراسة كل شيء وأي شيء؛ بدايةً من الأدوات الحجرية الخشنة التي لا تكاد تميزها عن الأحجار الطبيعية، وصولًا إلى تحليل صور الأقمار الصناعية للحصول على بيانات عن المواقع الأثرية.

بوسعك أن تختار أعمال التنقيب الكثيفة، أو تنفيذ أعمال مسحٍ سطحية مكثفة، أو أن تقضي وقتك في فرز الأنواع المختلفة للقطع الأثرية، أو وضع نظريات مجردة، أو أن تخبر الجميع عن مكامِن الخطأ، وكيف أنه لا يوجد شيء صحيح. كذلك بإمكانك قضاء وقتك في مكتبة أو في مختبَر. يمكنك العمل في متحف أو في وحدة إقليمية معنية بالآثار، أو تكريس حياتك للتدريس أو إجراء أبحاث أصلية (وقلة تستطيع الجمع بينهما)، أو يمكنك البقاء خارج «التخصص» وتلقَّب بأنك «عالم آثار هاوٍ»؛ فقد قدم «الهواة» إسهامات هائلة في علم الآثار على مدار سنين، ولم تنضب إسهاماتهم بعد على الرغم من أن قاطني الصروح الأكاديمية كثيرًا ما ينظرون إليهم نظرة دونية ويهزَءون بهم. في الحقيقة، قد يكون كثير من «الهواة» على اطلاع أوسع بكثير من «المختصين» ومتفانين أكثر ممن ينظرون إلى علم الآثار على أنه مجرد مهنة أو وسيلة لكسب العيش، بدلًا من أن يرَوه مجالًا يُلهِب شغفهم ويستهلك عطلاتهم الأسبوعية وكل لحظة من أوقات فراغهم. وبطبيعة الحال، يمكن المبالغة في ذلك، ولا يوجد أسوأ أو أشد إملالًا ممن يُهوَسون بعلم الآثار — سواء من أهل التخصص أو الهواة — إلى حدٍّ يستنزف طاقاتهم. ولذا حريٌّ بنا أن نتحلَّى بنظرة متوازنة، وأن نذكِّر أنفسنا أننا في الأساس ندرس بقايا السابقين، ونحاول أن نضع فرضيات للطريقة التي عاشوا بها.

إذا كنت مهتمًّا بالنُّهُج النشِطة أكثر أو غير التقليدية ولكنك لا تملك الرغبة (أو حتى القدرة أو الوسيلة المالية) لأعمال التنقيب أو المسح، فبين يديك عددٌ هائل من البدائل؛ على سبيل المثال: علم الآثار التجريبي أو «علم الآثار الإثنوجرافي» (الفصل الثالث)، أو البحث في الأعمال الفنية على الصخور. بوسعك أيضًا البقاء حيث أنت أو السفر حول العالم وممارسة مهاراتك اللغوية في الحالتين كلتيهما. وربما تحتاج إلى دراسة سلوكيات الحيوانات البرية وعاداتها أو أساسيات الزراعة، وربما تكتشف أن الأنفع لك أن تسأل أهل الخبرة في الحرف التقليدية، مثل الإنشاءات الحجرية أو النجارة أو بناء السفن أو صناعة الأواني الفخارية، أو تستشير أصحاب المهارات في الملاحة أو علم الفَلَك. بعبارة أخرى، دراسة علم الآثار يشبه حضور مجموعة دروس مسائية في شتَّى التخصصات دفعةً واحدة.

نطاق الاحتمالات لا حصر له، وحتمًا لن نتمكن من طرح كل الموضوعات بين صفحات هذا الكتاب. بل سنُلقي نظرة فقط على بعض المجالات الرئيسية التي تهم علم الآثار في العصر الراهن، والهدف من ذلك فتح شهيتك وتحفيز فضولك لمعرفة الماضي.

من الصفات التي يجب أن يعلو مستواها عند معظم علماء الآثار — بغضِّ النظر عن تخصصهم — التفاؤل؛ أي يؤمن عالم الآثار بأنه يمكنه قول كلام له معنى عن الماضي بناءً على آثاره المادية. المشكلة الأساسية التي يواجهها علماء الآثار هي أنه لم ينجُ من أحداث الماضي سوى جزء صغير من الأدلة، ومن هذه الأدلة لم يسترجع العلماء إلا أصغر جزء منها، وتفسير أو تعريف هذا الجزء الضئيل مما استرجعه العلماء تفسيرًا صحيحًا غير مستيقَن. لكن ينبغي ألا يضع هذا الحديث عائقًا أمامك، فمعظم الناس يستخدمون هذا الموقف لصالحهم؛ فالبعض يكرس الوقت لرسم جسورٍ عبر الفجوات في الأدلة من أجل طرح تسلسل للأطوار أو الأنواع، والبعض يغض الطَّرْف عن مدى عدم موثوقية البيانات وعدم تمثيلها للموقف، ويستخدمونها، برغم ذلك، من أجل نسج حكايات عن الماضي. وكما ورد على لسان عالم الأحياء ستيفن جاي جولد من جامعة هارفارد: «يتطور قدر كبير من العلم عبر سرد الحكايات بالمعنى الحرفي للكلمة، ولكنها تبقى مجرد حكايات. فكر في السيناريوهات التقليدية عن تطور الإنسان، مثل الحكايات عن الصيد واستخدام النيران والطقوس وصنع الأدوات والتقدم في العمر والصراع والموت. فكم منها اعتمد على الأدلة التي جُمعت من العظام والمصنوعات اليدوية، وكم منها اعتمد على المبادئ المطبَّقة في المؤلفات؟»

قد تعتقد أن علم الآثار التاريخي يوقفك على أرض أصلب، ولكن الوضع ليس كذلك على الدوام. وبطبيعة الحال، نعرف المزيد عن بعض أنماط هذه الثقافات لأنها تركت سجلات مكتوبة، ولكن كل المؤرخين يعرفون أنه ينبغي أخذ مسألة الانحياز وعدم الدقة في الاعتبار. على سبيل المثال، تختلف كل النصوص الباقية وروايات شهود العيان بشأن هزيمة كاستر الساحقة في معركة ليتل بيجورن — التي وقعت عام ١٨٧٦ — اختلافًا جوهريًّا، ليس من حيث ما وقع في المعركة وكيف فحسب، بل من حيث المسائل الأساسية أيضًا، مثل أعداد المقاتلين على كلا الجانبين. وكما قال إيه جيه بي تايلور: التاريخ ليس فهرسًا، بل نسخة من الأحداث.

بالطبع قد يجد المرء متشائمين بين صفوف علماء الآثار — وهم الذين يرون أن البقايا التي يدرسونها ليس لها نفع، وبشكل أو بآخر، يرون أن إنجازاتهم ليس لها نفع. لا شك أن علم الآثار موضوع «كمالي»، ولا ينفك يحتاج إلى مسوِّغ لوجوده (الفصل التاسع)،

شكل ١

ولكن في الوقت نفسه يراه كثير من الناس موضوعًا جاذبًا وممتعًا، وهذا واضح في أرقام المشاهدات المرتفعة على الدوام على شاشات التلفزيون (لا سيما حين يكون الحديث عن مصر)، وهو ما يُسهم إلى حد كبير في السياحة العالمية (الفصل التاسع).

وعلى الصعيد الشخصي، فإن علم الآثار موضوع يجعل المرء يستمتع كثيرًا بعمله، ويلقى عددًا من الأشخاص الودودين والمتشابهين في الأفكار من جميع أنحاء العالم، لا سيما في المؤتمرات، أو يوطد علاقاته بهم. أما على الجانب الآخر، فإن درجة الغيرة والحقد والطعن في الظهر والقتال الشرس بين أهل المجال على بعض الأسباب يفوق الحد الطبيعي الموجود في المجالات الأخرى. لذا إذا كنت تنوي الدخول في هذا المجال، فعليك أن تتسلح بقدر كبير من عدم الاكتراث. وحتمًا لا يخلو المجال من بعض علماء الآثار المغرورين والمنافقين والمخادعين والمدَّعين والمعتدِّين بأنفسهم والمجردين من المبادئ، لكن هذا لا يوقف نجاحهم في المجال. بل على العكس تمامًا في الحقيقة. (للأسف، لا يمكنني ذكر بعض الأسماء هنا، على الرغم من أني أود ذلك، ولكنهم يعرفون أنفسهم.)

باختصار، علم الآثار أوسع المجالات؛ إذ يجد الجميع فيه منهله، كما أنه يسع الجميع، حتى — أو لا سيما — غير المؤهلين، والمهووسون، وغير المندمجين في المجتمع، فهؤلاء لا بد أن يجدوا مشربهم في المجال أكثر مما يجدونه في رصد أرقام القطارات على سبيل الهواية أو تصفح الإنترنت.

وبما أنه لا أحد مطلقًا يعلم ما حدث في الماضي (بما في ذلك التاريخ الحديث)، فلن تنتهي الأبحاث المتعلقة بعلم الآثار مطلقًا. ستظل النظريات تُطرح وتُطمَر، وستُحيِي الأدلةُ أو الاكتشافات الجديدة القصةَ المقبولة التي تشكل الرأي السائد عن الماضي؛ إذ يرسخه التكرار بين الناس وانتشار قبوله. وكما قال ماكس بلانك: «لا تنتصر الحقيقة العلمية بإقناع الرافضين لها وتبيان جوهرها لهم، بل تنتصر بموت الرافضين لها ونشوء جيل جديد على دراية بها.»

علم الآثار بحث لا ينقطع، وليس اكتشافًا فعليًّا، إنه رحلة أبدية ليس لها وجهة حقيقية. وكل ما فيه عابر، ولا شيءَ فيه نهائي.

لئلا يبدو ما سبق نظرة تشاؤمية نوعًا ما، فاطمئن إلى أن علم الآثار لا يزال مجالًا ممتعًا كثيرًا، ويمكن أن يلهب المشاعر لدرجة أن اكتشافًا غير عادي حقًّا، مثل رجل الثلج أو جيش الطين (تيراكوتا) الصيني، يمكن أن يشعل اهتمام العالم بأسره. والمجالات التي لها هذه السمة ليست كثيرة.

الفصل الأول

أصول علم الآثار وتطوره

علم الآثار — مثل الحنين إلى الماضي — لم يكن كما هو عليه الآن، إذَن من أين نشأ علم الآثار؟ أو بعبارة أخرى، ما «جذور علم الآثار»؟

أغلب الناس يهتمون بالماضي؛ وفي الحقيقة، حين نعلم حقيقة أننا ميِّتون، وأننا، دون غيرنا، القادرون على تدمير الكوكب، فقد يكون هذا الاهتمام من السمات التي تميز البشر. وكأن الإنسان ما برح يكتنفه الفضول بشأن الآثار التي خلفها أسلافه؛ إننا لا نعرف البتة متى بدأ هذا الفضول، ولكن هناك العديد من الحالات التي تقول إن الثقافات القديمة قد جمعت، أو حتى عظَّمت من شأن، آثار أسلافها، على سبيل المثال، عُثر على مجموعة من الفئوس من العصر الحجري في مقبرة إحدى أميرات التراقيين من القرن الخامس في بلاد البلقان. وفي أمريكا الشمالية، احتوت مواقع قبائل الإروكوا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر على مصنوعات يدوية صُنعت قبل آلاف السنين، وفي أمريكا الجنوبية يقال إن أباطرة الإنكا جمعوا الأواني الفخارية الرائعة التي تحتوي على رسومات إباحية من حضارة الموتشي، ويبلغ عمرها قرونًا.

أول «عالم آثار» معروف هو الملك نابونيدوس الذي حكم بابل، حيث إنه في القرن السادس قبل الميلاد حفر في أرضية معبد حتى وصل إلى حجر الأساس الذي وُضع قبل آلاف السنين. وفي فيلم صامت عن ملحمة «التعصب» (إنتوليرانس) الذي أخرجه دي دبليو جريفيثس عام ١٩١٦، احتوى مشهدٌ على التعليق الآتي: «مرَّ والد بلشاصر بيوم لا يُنسى. فقد نقب حتى وصل إلى حجر الأساس لمعبد «نارام سين» الذي بُني قبل ٣٢٠٠ سنة. وبالمناسبة، إنه يقول إن الملك كورش الفارسي — العدو القوي لمدينة بابل — يقترب من المدينة.» وهذا يشير إلى أنه حتى رواد علم الآثار الأوائل قد أصابهم الهوس بالموضوع، وكانوا عرضةً لأن يستحوذ على عقولهم.

علماء الآثار القدامى لا يشبهون دومًا علماء الآثار اليوم. ففي اليونان في القرون الأولى بعد الميلاد، أشار المصطلح إلى فئة من الممثلين الذين أحيوا الأساطير القديمة على المسرح عبر عروض التمثيل الدرامية! أما مصطلح علم الآثار بمفهومه اليوم، فأعاد صياغتَه طبيبٌ وجامع آثار من مدينة ليون في القرن السابع عشر اسمه جاك سبون. إنه مَن نحت كلمة «أركيوجرافيا»، ولكن هذه الكلمة لم تلقَ أي قَبول.

في العصر الروماني، اكتشف جنود يوليوس قيصر العديد من المقابر التي احتوت على آثار عظيمة وهم يؤسسون المستعمرات في إيطاليا واليونان، وقد جمعوها من أجل الحصول على الأواني والمصنوعات البرونزية، وبيعت بأسعار مرتفعة في روما، وهذا مثال مبكر على نهب المقابر والتجارة في الآثار. ويقول المؤرخ سويتونيوس إن الإمبراطور أغسطس كان يجمع «الهياكل العظمية الضخمة للوحوش البحرية والبرية المعروفة باسم «عظام العمالقة»، وكان يجمع أيضًا أسلحة الأبطال القدامى».

بحلول العصور الوسطى، افتُتن الناس في أوروبا بـ «الأواني السحرية»، وهي أوانٍ (ربما جِرار حرق الجثث) ظهرت من الأرض ظهورًا غامضًا بسبب عوامل التعرية أو الحيوانات التي تعيش في الجحور. وفي الوقت نفسه، ما فتئت أحجار الصوَّان التي شكَّلها الإنسان والفئوس الحجرية المصقولة تظهر حين كان المزارعون يحرثون الأراضي. وطبقًا للاعتقاد السائد، كانت هذه المصنوعات اليدوية سهامًا عِفريتية أو صواعق، وقد قدستها وجمعتها شعوب نائية؛ مثل شعوب أفريقيا والهند، واستخدمها الناس باعتبارها تعويذات أو تمائم. وفي أوروبا، آل العديد من هذه المصنوعات إلى «حجرات العجائب»، وهي مجموعة من الأشياء الطبيعية والصناعية التي جمعها المهتمون بالآثار، وبدأ الوعي يتنامى رويدًا رويدًا لدى العقول المستنيرة بأن «مقذوفات الصواعق» أو «الأواني السحرية» هي في الحقيقة آثار مِن صُنع الإنسان، خلَّفتها الشعوب القديمة. وفي الوقت نفسه، ألهم اكتشاف المنحوتات اليونانية والرومانية الفنانين المعاصرين لدراسة الأشكال الكلاسيكية، في حين أن العائلات الثرية بدأت تَجمع الآثار الكلاسيكية وتعرضها.

في القرن السادس عشر في شمال غرب أوروبا، بدأ بعض العلماء بالفعل في تفنيد مقولة فرانسيس بيكون بأن «العصور القديمة (باستثناء ما حُفظ منها في النصوص المقدسة) قد باتت في طي النسيان»، وأدركوا أن المعلومات عن الماضي البعيد يمكن أن تُستنبَط من دراسة الآثار الميدانية؛ ومن ثَم، بدأت مجموعات كاملة من المهتمين بالآثار في بريطانيا والدول الاسكندنافية والبلدان الأخرى في زيارة هذه المعالم الأثرية ووصفها.

وعلى إثر ذلك شهد القرنان السابع عشر والثامن عشر تطورَ هذه الأنشطة إلى اهتمام أكثر منهجيةً؛ إذ صحبه تزايد في أعداد عمليات التنقيب. ولما كان الهدف من هذه العمليات استخراج هذه الآثار من الأرض، فقد تعامل بعض الرواد مع عمليات التنقيب وكأنها عمليات تشريح دقيقة؛ إذ يدوِّنون العلاقة بين هذه المصنوعات اليدوية وطبقات التُّربة؛ وبوجه عام، أدركوا أن الآثار الموجودة في الطبقات العُليا لا بد أن عمرها أصغر من تلك الموجودة في الطبقات السفلى.

أدى هذا النهج الجديد في دراسة الأرض ومناظرها الأثرية، وقراءتها وكأنها وثيقة، إلى زيادة عمليات التنقيب زيادة مهولة؛ وأقصد هنا عمليات التنقيب في تلال الدفن في شمال غرب أوروبا وأمريكا الشمالية. وفي بادئ الأمر، كانت هذه العمليات مسعًى ترفيهيًّا للنبلاء ورجال الدين والأطباء ورجال الأعمال والمدرسين ومَن على شاكلتهم؛ وحتى اليوم، تُقدم هذه المهن إسهامات كبيرة في علم الآثار لـ «الهواة».

في الواقع، منذ أوائل القرن التاسع عشر وحتى منتصفه، بدأ علم الآثار يحل محل الأثريات، بمعنى أنه تطلع إلى أن يكون أقوى في طابعه المنهجي والعلمي بشأن الآثار التي خلَّفها الماضي. في هذه الفترة، أدت اكتشافات الأدوات الحجرية في غرب أوروبا، بالإضافة إلى الحيوانات التي أصبحت منقرضة الآن، إلى أول إثبات على وجود الإنسان منذ القِدَم، ثم انتشار قبول هذا الإثبات بوجه عام في النهاية. وبنهاية القرن التاسع عشر، أصبح علم الآثار الفعلي مشروعًا مزدهرًا؛ حيث جدَّ العديد من «الشخصيات المرموقة» في العمل؛ مثل بيتري في الآثار المصرية، وكولدوِي في الآثار البابلية، وشليمان في حضارة بحر إيجة، وبيت-ريفرز في الحضارة البريطانية. وبالنسبة إلى معظم هؤلاء الرواد (ربما يستثنى منهم شليمان الكاذب والمخادع)، تحوَّل الأمر من البحث عن الكنوز إلى البحث عن المعلومات، وصار وسيلة للإجابة عن أسئلة محددة.

على مدار القرن العشرين، وبفضل الإسهامات التي قدمها عدد كبير من القامات أمثال ويلر في بريطانيا والهند، ورايزنر ووُولي في الشرق الأدنى، ويولي وكيدر في أمريكا، وبوردس وليرُوي-جورهان في فرنسا، أصبح علم الآثار مشروعًا ضخمًا ومتشعب التخصصات؛ إذ يعتمد على الخبرات في العديد من المجالات؛ بدايةً من علماء الجيوفيزياء (الذين يمكنهم اكتشاف الأشياء القابعة تحت الأرض باستخدام مجموعة من الأدوات)، والمتخصصين في التصوير الجوي، وعلماء الحيوان، وعلماء النبات، وعلماء الكيمياء، وعلماء الوراثة، ومجموعة كبيرة من العلماء الذين يمكنهم تحديد التاريخ من المادة الأثرية أو من الرواسب التي تعلَق بها (الفصل الثاني).

شكل ١-١: التنقيب في تايلور لو، ويتون، مايو ١٨٤٥.

في العصر الراهن، أصبح علم الآثار المستند إلى الأساليب العلمية يحتل الصدارة، ويسهم علم الوراثة كثيرًا في العديد من جوانب دراسة الماضي. وأيضًا يشارك علماء الآثار في بعض المناقشات البارزة التي تشغلنا في العصر الحديث؛ مثل دور تغير المناخ، وتأثيرات الارتفاعات في مستوى البحر، واحتمالية الاحترار العالمي. وفجأة، أصبحت الدراسات المعنية بتوقيت وتأثير الزلازل وأمواج تسونامي القديمة ذات أهمية بالغة في تقييم احتمالية حدوثها في المستقبل، والحيز المكاني الذي يمكن أن يطوله تأثيرها.

برز توجُّهان في علم الآثار بمرور الوقت، وهما: الأول تباطؤ عمليات التنقيب إلى حد كبير وزيادة صعوبتها. فبدلًا من الجلوس حول الطبقات الأثرية بالمَعاول (أو حتى المتفجرات!) كما كان في الماضي، أصبحت العناية مخصوصة بتجريف كل طبقة أو كشطها أو تفريشها، وغربلة كل طبقة حتى لا يُفقَد أي جزء من المعلومات التي قد تحتفظ بها الأرض. على سبيل المثال، «حفرة العظام» الواقعة في أتابويركا بإسبانيا عبارة عن حجرة عميقة داخل كهف، وتحتوي على هياكل عظمية لمجموعات من البشر عاشوا منذ ٦٠٠ ألف سنة على الأقل (وفي الحقيقة، يبدو أن هذا الاكتشاف هو أقدم طقس جنائزي معروف على مستوى العالم (الفصل الخامس))، ولا يزيل عمال التنقيب أكثر من ١٠ بوصات في شهر يوليو من كل عام من هذه الحفرة. ينتج عن هذا العمل نحو ٣٠٠ عظمة بشرية، ولا

يسعهم التعامل مع أكثر من هذا العدد؛ لأنه يجب تنظيف كل عظمة وتقويتها وحفظها. ولذا يتسم هذا العمل بالدقة المتناهية؛ إذ تُغسل الرواسب المتبقية وتُنخل بعناية فائقة؛ لدرجة أنه استُعيدت عظام الأذن الداخلية الصغيرة.

التوجه الرئيسي الثاني — وهذا من المفارقات — هو أننا لا نحصل على كميات متزايدة من المواد من كل الأنواع فحسب، بل إننا — بفضل ابتكار تقنيات حديثة متطورة وإجراء التحليلات العلمية — يمكننا معرفة الكثير والكثير عن كل مادة أثرية. لنضرب مثالًا بقطعة فخارية واحدة (شظايا الفخار من أكثر الأدلة الأثرية ديمومة؛ ومن ثَم من أكثرها انتشارًا في كل مكان)؛ في الماضي، كان يمكن تصنيف القطعة ضمن أحد الأوعية الفخارية بناءً على شكلها ومادتها وزخارفها إن وُجدت. ولكن الآن صار بمقدورنا الحصول على تحليل مفصل عن المواد الخام للوعاء الفخاري؛ ما يُمكِّننا من تحديد مصدره، بل يمكننا معرفة درجة حرارة فرن التجفيف، ومعرفة المواد المضافة لتقويته، كذلك يمكن تأريخ الوعاء الفخاري نفسه باستخدام تقنية اللمعان الحراري (الفصل الثاني)، ويمكن استخدام طرق أخرى لتحليل أضعف آثار البقايا على السطح الداخلي ومعرفة ما كان بداخل الوعاء!

بعبارة أخرى، مع تطور علم الآثار، صار ممكنًا إنجاز الكثير باستخدام موارد أقل. ولكن للأسف يُنتج هذا التطور كمًّا هائلًا من العمل بكل ما تحمله الكلمة من معنًى. فعلى مستوى العالم، تتزايد أعداد علماء الآثار الذين يتنافسون على المناصب، وكلٌّ يحاول إنتاج معلومات أو بيانات جديدة. كذلك تُعقَد أعداد كبيرة من المؤتمرات والندوات، وفي نهاية المطاف تُنشر محصلات هذه المؤتمرات والندوات في كتب. ومن ثَم تصدر مؤلفات مهولة عن علم الآثار، وتتفرع عناوين كثيرة مع بزوغ الجرائد الجديدة وسلاسل الدراسات العلمية كل عام، ولا يستطيع توفير كلفتها سوى قلة من الناس، حتى إن المكتبات تصارع من أجل شرائها في ظل تقلص الميزانيات في هذه الأيام. لا يسع أحدًا الإلمام بكل المؤلفات عن فترة أو منطقة أو تخصص واحد، فما بالك بعلم الآثار عن قارة واحدة، بل عن العالم بأسره.

تفاقم هذا الكم في السنوات الأخيرة بسبب المواد المهولة التي تُرفع على شبكة الإنترنت. فقد شرعت المكتبات في التخلِّي عن النسخ الورقية من دورياتها لصالح النسخ الإلكترونية، وهي، لا شك، تشغل مساحة أصغر بكثير! كذلك بزغت ظاهرة جديدة تُعرف باسم «المؤلفات غير الرسمية» (بكل ما تحمله الكلمة من معنًى) وتتألف من عدد لا حصر له من التقارير المنشورة عبر قنوات غير رسمية أو غير المنشورة؛ ومن ثَم يصعب تتبعها على الرغم من أنها قد تحتوي على معلومات مفيدة. ولذا من المفارقات أن التكنولوجيا الحديثة — بطريقة أو بأخرى — صعَّبت الإلمام بكل هذه المؤلفات.

كان الوضع قبل الحرب العالمية الثانية مختلفًا. وإذا ألقيت نظرة على أطروحات الدكتوراه لأسماء عظيمة، مثل جراهام كلارك أو جلين دانييل، في مكتبة جامعة كامبريدج، فستجد أن هذه الأطروحات قصيرة للغاية، ولا تكاد تعادل فصلًا واحدًا من الأطروحات في عصرنا الحالي. بالطبع توافرت مواد ضئيلة للغاية للتعلم أو القراءة عن علم الآثار في أيام دراستهم، وكذلك لم تتوافر لديهم رفاهية استخدام التقنيات العظيمة المتاحة اليوم، مثل «زيروكس» أو «إبسون» أو «أبِل»؛ ومن ثَم كانوا يُضطرون إلى الاعتماد على تدوين الملاحظات ورسم الخرائط بأيديهم.

في الوقت نفسه، تفيض المتاحف بالقطع الأثرية؛ ومن ثَم تفاقمت مشكلة حفظها (الفصل التاسع). في مصر على سبيل المثال، لجأ علماء الآثار إلى إعادة دفن القطع الأثرية لِعلمهم بأنها ستعيش بحالة أفضل ولمدة أطول إذا أُوكِلت إلى الأرض الأم بدلًا من أقبية المتاحف أو المخازن، والهدف من ذلك أن تشاهدها الأجيال المستقبلية. ومثلما أنه يوجد عدد هائل من أعمال التنقيب غير المعلَنة، يوجد «كم هائل من القطع الأثرية» ومجموعة من القطع غير المفهرسة أو غير المدروسة في متاحف العالم. الأمور سيئة للغاية لدرجة أن متحف نابولي — منذ عدة سنوات — اضطُر إلى إغلاق أبوابه لفترة من الزمن لأن الآلاف من العملات المعدنية، وغيرها من القطع الأثرية الأخرى، كانت تختفي من مخازنه، في حين أن القطع المفهرسة لم تبلغ نصف المخزون. من الواضح أنه يوجد الكثير مما ينبغي القيام به إذا كان على علم الآثار أن ينظِّم ساحته المبعثرة والمكتظة.

علم الآثار باعتباره مجالًا منفصلًا

منذ تجدد التفاؤل في ستينيات القرن العشرين (الفصل السابع)، زادت ثقة علماء الآثار إلى حد كبير في أن مجالهم لديه القدرة على تقديم إسهامات فريدة في دراسة سلوك الإنسان، وقد تبينت أهمية هذا الموضوع في أمريكا الشمالية على وجه الخصوص؛ نظرًا لعلاقة علم الآثار بالمجالات الأخرى ذات الصلة.

يعني علم الأنثروبولوجيا ببساطة: دراسة البشرية؛ وفي بريطانيا، ينقسم هذا العلم إلى علم الأنثروبولوجيا الاجتماعي (أو الثقافي)، وهذا القسم يهتم بتحليل ثقافة الإنسان ومجتمعه، وعلم الأنثروبولوجيا المادي (أو الأحيائي) ويهتم بدراسة السمات المادية للإنسان وكيف تطورت. لكن في أمريكا، يعتبر علم الآثار جزءًا أصيلًا من الأنثروبولوجيا؛ ومن ثَم

يوجد معظم علماء الآثار في «أقسام الأنثروبولوجيا»؛ إذ يعامَل مجالهم على أنه منهج فرعي وليس مجالًا قائمًا بذاته كما هو في بلدان العالم القديم.

يطلق على علم الآثار «الزمن الماضي لعلم الأنثروبولوجيا الثقافي»، وبما أنه يتعامل مع ماضي الإنسان، فلا شك في أنه يمثل جانبًا من جوانب الأنثروبولوجيا. ومع ذلك، فإن علم الآثار جزء من التاريخ على حد سواء؛ وفي الواقع، يقتضي الإنصاف أن يوصف التاريخ بأنه غيض من فيضِ علم الآثار؛ حيث إن أكثر من ٩٩ بالمائة من علم آثار الماضي الخاص بالإنسان هو المصدر الحقيقي الوحيد للمعلومات. فالتاريخ (بعيدًا عن التاريخ الشفهي) لا يبدأ إلا مع اختراع السجلات المكتوبة التي ظهرت في غرب آسيا منذ نحو ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد، ثم ظهرت في بقية العالم بعد ذلك بفترة طويلة. وحتى فيما يتعلق بالحقب التاريخية، لا تزال المعلومات المستقاة من البيانات الأثرية مكملًا لا يقدَّر بثمن للتاريخ المعروف من النصوص؛ وعلى أي حال، غالبًا ما يكون عالم الآثار هو أول مَن يكتشف الوثائق والمخطوطات.

بالطبع أحد الفروق الجوهرية بين الأنثروبولوجيا وعلم الآثار هو أن مجال علماء الأنثروبولوجيا بوجه عام أسهل بكثير؛ إذ إن لديهم القدرة على رصد سلوك الإنسان والتحاور معه؛ لأن علم الأنثروبولوجيا يُستقى من الوقت الحاضر. (بالطبع أشار بعض المتحذلقين في «علم الآثار ما بعد الإجرائي» (الفصل السابع) إلى أنه لا يوجد شيء اسمه الحاضر؛ لأنه بمجرد أن يصبح الإنسان واعيًا باللحظة، فإنها تصير في الماضي. لكن هذا النوع من الملاحظات السطحية لا يدعو إلا إلى السخرية). أما «شهود» علم الآثار فصاروا تحت التراب ولم تعد شهاداتهم مسموعة؛ ومن ثَم يُضطر إلى الحصول على الإجابات بالحيلة. ويمكن تشبيه الاختلاف بينهما بالحديث إلى شاب تدبُّ فيه الحياة والصحة والحديث مع جثة هامدة.

والنتيجة الطبيعية الأخرى لهذا الاختلاف هي أنه بينما يمكن لعلماء الأنثروبولوجيا أن يروا كيف يتصرف الإنسان محل الدراسة ويطلبون تفسيرات، يتعين على علماء الآثار إعادة بناء السلوك. ولإعادة بناء السلوك، فإن العلماء بحاجة إلى وضع افتراضٍ جوهري بأن سلوك الإنسان لم يتغير منذ ظهور «الإنسان العاقل الحديث تشريحيًّا» منذ قرابة ١٠٠ ألف عام؛ ومن ثَم يمكن التنبؤ بسلوكه. كذلك يجب وضع الافتراض نفسه بشأن الحيوانات والنباتات التي استغلوها؛ أي افتراض عدم تغير سلوك هذه الحيوانات والنباتات، وعدم تغير مذاقها، وعدم تغير تحملها للمناخ والعوامل البيئية، وعدم تغير التربة ودرجة الرطوبة؛ ومن ثَم يمكن طرح تنبؤ موثوق عند إعادة بناء الماضي. ومن ثَم أمامنا عدد هائل

من الافتراضات، لا سيما أنه لا يمكن التأكد من مسوغاتها البتة، ولكنها ضرورية؛ لأنه من دونها لن يؤتي علم الآثار ثماره. إذا لم نستطع أن نخمن بقدر من الدقة الكيفية التي تفاعل بها الإنسان في الماضي مع مجموعةٍ محددة من الظروف، فيمكننا هجر هذا المجال والتوجه إلى الأنثروبولوجيا؛ فهو مجال لا تبلغ صعوبته درجة علم الآثار.

الفصل الثاني

التأريخ

لن تجد في دراسة الماضي فائدةً كبيرة إن لم تعرف عُمر الاكتشافات الأثرية، أو على الأقل تعرف أي اكتشاف أقدم من الآخر. فليس هناك أي قدر من الحماسة لدراسة الماضي، يمكن أن يُستعاض به عن التسلسل الزمني المحكم؛ ولا فائدة من امتلاك الشغف إن لم تعرف تاريخ الاكتشاف الأثري. إذَن، كيف يؤرخ علماء الآثار الاكتشافات الأثرية؟

حتى وقت قريب جدًّا، لم تتوافر سوى طريقتين لوضع التسلسل الزمني؛ وهما: التأريخ النسبي والتأريخ التاريخي. وببساطة، يعني التأريخ النسبي وضع الاكتشافات الأثرية — القطع الأثرية والترسُّبات والأحداث والثقافات — ضمن تسلسل معين، بحيث يكون عُمر بعضها أصغر من عمر بعضها الآخر أو أكبر منه. أما التأريخات التاريخية فتنبثق من الفترات التي لها شواهد مكتوبة، مثل العصور الوسطى أو الرومانية. لكن في حقبة ما قبل التاريخ، لا يفيد فيها سوى التأريخ النسبي، وعلى الرغم من معرفة أن العصر البرونزي أسبق من العصر الحديدي، وأن العصر الحجري أسبق من العصر البرونزي، فإننا لا نعرف طول الفترة الفاصلة بين العصور.

ينبع المنطق الأساسي الداعم للتأريخ النسبي من علم طبقات الأرض، وهو دراسة الطريقة التي تكونت بها الطبقات أو الترسُّبات بعضها فوق بعض. وبوجه عام، تترسب الطبقة الأساسية أولًا؛ ومن ثَم فإنها تسبق الطبقة التي تعلوها. تنطبق هذه الطريقة على القطع الأثرية التي توجد بداخل هذه الطبقات ما لم يوجد شيء يعكس هذا الترتيب، مثل جحور الحيوانات أو حفر مقبرة أو مقالب النفايات أو التعرية أو إعادة الترسبات.

ثَمة طرق لمعرفة هل العظام في الطبقة الواحدة لها العمر نفسه أم لا عن طريق التأريخ الكيميائي. فبمرور الوقت، يتضاءل محتوى النيتروجين في العظْمة، كما أنها تمتص الفلور واليورانيوم بالتدريج. ومن ثَم فإن قياس هذه العناصر سيحدد ما إذا

كانت مجموعة العظام دُفنت في الفترة نفسها أم في فترات مختلفة. استُخدمت هذه الطريقة في أوائل خمسينيات القرن العشرين لكشف خدعة بلتداون؛ وهي محاولة وقعت في ساسِكْس عام ١٩١٢ لإثبات «الحلقة المفقودة» المفترضة بين القِرَدة والبشر، ولكن تبين أنها خدعة حقيقية. فقد كشف التأريخ الكيميائي أن الجمجمة حديثة، وأن الفك أُخذ من إنسان غابٍ متحضر. كذلك لُوثت الأسنان وتعرضت للتآكل عمدًا كي تبدو قديمة ومقنعة. احتدم النقاش على مدار عقود وعلت الأصوات بشأن المسئول أو المسئولين عن هذه الخدعة، وكان من ضمن المشار إليهم تيلار دو شاردان وسير آرثر كونان دويل، ولكن من الواضح أن الجميع يتفق الآن على أن المسئول هو تشارلز داوسون؛ إذ إنه «مكتشف» الاكتشافات، كما أنه تورط في عمليات احتيال أثرية أخرى.

النوع الأثري الأساسي الثاني للتأريخ النسبي هو «التصنيف النوعي»، ويقصد به تصنيف القطع الأثرية ضمن أنواع تتشارك السمات المادية نفسها والشكل والزخارف، أو أيًّا من ذلك. يعتمد هذا النظام الكلي على فكرتين أساسيتين؛ وهما: الأولى أن القطع الأثرية من مكان وحقبة زمنية محددين تتشارك نمطًا مميزًا (فرز القطع المتشابهة معًا)، وأن التغيرات في النمط تكون تدريجيةً إلى حدٍّ ما. وفي الحقيقة، يمكن أن تتزامن الأنماط المختلفة، ويمكن أن يستمر النمط الفردي مدة طويلة، ويمكن أن تحدث التغيرات في النمط سريعًا، ولكن لحسن الحظ، لا تخوض كتب المقدمات القصيرة في هذه التعقيدات!

على أي حال، كرَّست أجيالٌ من علماء الآثار — وأبرزهم العلماء من البلدان الجرمانية — حياتها لوضع تسلسلات تفصيلية لأشكال الأواني والأدوات والأسلحة، ثم محاولة ربط التسلسلات من مناطق مختلفة. وحينئذٍ تُجمع القطع الأثرية المختلفة — ذات الحقبة الزمنية الواحدة — معًا في «مجموعة»، وتُرتَّب المجموعات ضمن تسلسلات وتُعقد المقارنات بين المناطق بعضها وبعض.

تعتمد التسلسلات الزمنية النسبية الأخرى على تعاقب الأطوار المناخية للعصر الجليدي (العصور الجليدية أو مراحل الزحف الجليدي، والعصور بين الجليدية أو الفواصل الزمنية الدفيئة، والتقلبات الطفيفة التي تُعرَف باسم العصور الباردة والعصور الدفيئة)، ولكن بفضل المعلومات المناخية المفصَّلة المأخوذة من العيِّنات الجليدية الجوفية في القطبين الشمالي والجنوبي، أصبحنا نعرف أن المناخ في العصر الجليدي كان أشد تعقيدًا وأكثر تقلبًا مما نعرف بكثير. كذلك تعطي حبوبُ اللقاح من الترسبات تسلسلات عن التغيرات المناخية والنباتية، ولكن عادةً ما تكون محلية إلى حدٍّ ما. وأيضًا، التأريخ

الحيواني — القائم على وجود عظام فصائل الحيوانات المختلفة — طريقة مهمة، لا سيما في علم آثار المعني بعصر البلايستوسين (دراسة العصر الجليدي المتأخر)، حيث توافدت الفصائل الحيوانية التي تعيش في المناخ «البارد» والمناخ «الدفيء» وانقرضت مع التغيرات المناخية والبيئية.

التوصل إلى التسلسلات الزمنية إنجاز عظيم، ولكن تواريخ التقويم — «التواريخ المطلقة» — هي ما يَتُوق إليه علماء الآثار. وحتى أواخر القرن العشرين، لم يكن ثَمة تواريخ متاحة غير التي عُرفت من الروابط الأثرية بالتسلسلات الزمنية والتقويمات التي وضعتها الشعوب القديمة، وهذه التقويمات لا تزال ذات أهمية كبيرة في عصرنا الحاضر. والعديد من هذه التقويمات — مثل التقويم الروماني والمصري والصيني وغيرها — اعتمد على سنوات الحكم للقناصل أو الأباطرة أو الملوك أو «الأسرات الحاكمة». الأسرات الحاكمة المصرية، على سبيل المثال، يمكن تأريخها بدايةً من غزو الإسكندر الأكبر لمصر، الذي وقع عام ٣٣٢ قبل الميلاد حسب المؤرخين اليونانيين. كذلك ورد مزيد من التفاصيل والتوضيحات من السجلات المصرية الخاصة بالأحداث الفلكية التي نعرف تواريخها من مصادر علمية مستقلة.

كان لدى حضارة المايا في أمريكا الوسطى تقويم بالغ الدقة؛ إذ لم يعتمد على الحكام أو الأُسرات الحاكمة، بل اعتمد على دورة من ٢٦٠ و٣٦٥ يومًا، وقد بدأ هذا التقويم في أغسطس ٣١١٣ قبل الميلاد (حسب نظامنا نحن).

كل هذا يعطي الفرصة لعلماء الآثار كي يؤرخوا اكتشافات أثرية معينة، مثل النقوش التي تتحدث عن الوقائع أو الحكام، وبالطبع العملات المعدنية في العصور الرومانية والوسطى؛ إذ تحمل اسم الحاكم في تلك الفترة. وعلى المرء أن يضع في اعتباره دومًا أن تأريخ الاكتشاف الأثري لا يستلزم تأريخ الفترة التي عُثر عليه فيها؛ فالعملة المعدنية يمكن أن تتقلب بين الطبقات أو تُكنَز لعقود أو قرون، ولكنها تعطيك على الأقل الحد الأقصى لعمر الطبقة؛ إذ لا يمكن أن تكون طبقة الأرض أقدم من التاريخ على العملة (ما لم تكن العملة قد طُمرت بعد تكوُّن الطبقة)، بل إنها تكون أحدث منه بكثير.

بعيدًا عن هذه العصور التاريخية والتقويمية، لم تكن ثَمة حيلة لعلم الآثار حتى قدَّم له العلم سلسلة كاملة من الوسائل للتوصل إلى «التواريخ المطلقة» من مواد مختلفة. فالتسلسل الزمني المحكم (إلى حدٍّ ما) كان أعظم هدية قدَّمها العلمُ لعلم الآثار (وكما يقولون، لا توجد هدية تضاهي الزمن ...).

قبل الحرب العالمية الثانية، لم يتوافر سوى تقنيتين محليتين، وهما: «طبقات الترسب الحَولي» في الدول الاسكندنافية، والحلقات الشجرية في جنوب غرب أمريكا. كلمة Varves (طبقات الترسُّب الحولي) مصطلح سويدي يعني الترسبات الطينية التي تتراكم سنويًّا عبر الصفائح الجليدية الذائبة. يتفاوت سُمك هذه الطبقات سنة بعد أخرى، حيث إن السنة الدفيئة تؤدي إلى ارتفاع نسبة الذوبان؛ ما يزيد من سُمك الطبقة. وبمقارنة درجات السُّمك المتعاقبة لسلسلة من الطبقات ومقارنتها بالنمط في مناطق أخرى، فإن حالات التعاقب الطويلة يمكن أن ترتبط بعضها ببعض وتعطي عمرًا يمتد إلى آلاف السنين. ينطبق الأمر نفسه بالضبط على نمو الحلقات في الأشجار؛ إذ إن تعاقب الحلقات الأكثر أو الأقل سُمكًا — الناجم عن التقلبات المناخية المحلية — يمكن أن يتراكم عبر أنماط متداخلة من الأشجار ذات الأعمار المختلفة. على سبيل المثال، لدينا الآن تسلسلات كاملة تمتد إلى ٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد في ألمانيا، ويمكن استخدامها في المقارنة بين الأخشاب القديمة وتحديد أعمارها.

وبطبيعة الحال، فإن التقنية يتلاءم تطبيقها أكثر في مناطق مثل جنوب غرب أمريكا؛ حيث حافظ الجفاف على كثير من الأخشاب القديمة، أو في شمال غرب أوروبا؛ إذ تُركت الأخشاب المشبَّعة بالمياه في مناطق رطبة. ومن ثَم بدأت تظهر نتائج ذات دقة مذهِلة؛ ففي بريطانيا على سبيل المثال، يشير تحليل الأخشاب من ممر خشبي يُعرف باسم «سويت تراك» في سومرست — وممتد عبر مستنقع — إلى أنه بُني في فصل الشتاء من عام ٣٨٠٧ أو ٣٨٠٦ قبل الميلاد.

طريقة الحلقات الشجرية لها قيمة كبيرة باعتبارها وسيلة للتحقق من التواريخ المحددة بطريقة الكربون المشِع، وهذه الطريقة لم تُحدث ثورة في علم الآثار فحسب، بل أثبتت «فاعليتها بدرجة تدعو إلى الريبة فيها» بمعنًى أو بآخر. تتكون العينات من المواد العضوية المأخوذة من المواقع الأثرية، مثل الفحم والأخشاب والبذور وعظام الإنسان أو الحيوانات، ولأن هذه الطريقة تقيس الكمية الضئيلة من نظير الكربون المشع ١٤ (C14) المتبقي في المواد العضوية ... حيث إنه يُمتص على مدار الحياة، فإنه دائمًا ما يُفقد بعد الوفاة، وفي تطور يُعرف باسم مسرِّع قياس الطيف الكتلي (AMS)، لا يلزم أن تتوافر غير عينات صغيرة للغاية، ثم تُعَدُّ ذرات الكربون المشع ١٤ مباشرةً. ولكن حد التواريخ الموثوقة لا يزال يبلغ ٥٠ ألف سنة تقريبًا.

الافتراض الأساسي الداعم لطريقة الكربون المشع هو أن تركيز الكربون المشع ١٤ ثابت في الغلاف الجوي، ولكن ثبت في النهاية خطأ هذا الافتراض، فقد بِتنا نعرف أن نسبة

التركيز قد تفاوتت عبر الزمن تفاوتًا كبيرًا بسبب التغيُّرات في المجال المغناطيسي للأرض. ولو اختُبرت هذه الطريقة على حلقاتٍ لأشجار ذات عمر معروف، فلربما سارت الأمور بشكل أسلس منذ البداية، وحُلت هذه المشكلات المستعصية. أدى إنشاء رسوم تقارن بين تحديد الأعمار بالكربون المشع والأعمار بالحلقات الشجرية إلى رسم «منحنيات معايرة»، وهي عبارة عن تمثيلات بيانية توضح درجات التغير الخاصة بنسبة الخطأ في التأريخ بالكربون المشع ١٤ بمرور الوقت؛ إذ تعود إلى نحو ٧ آلاف سنة قبل الميلاد.

وعلى الرغم من هذه الشكوك والمخاطر المستمرة لتلوث العينات، أصبح التأريخ بالكربون المشع أكثر أداة مفيدة ومنتشرة في علم الآثار؛ حيث إنها تضع تسلسلات زمنية للمناطق التي كانت تفتقر إلى جداول زمنية من أي نوع. فهذه الطريقة يمكن استخدامها في أي مكان من دون وضع المناخ في الاعتبار، ما دامت المادة العضوية متوفرة.

ولكن ما الذي يحدث إن «لم» تتبقَّ مادة عضوية في الموقع؟ حتى وقت قريب، لربما أدى حدوث ذلك إلى قتل أي أمل في الحصول على تاريخ، ولكن قد تغير الحال بفضل عجائب العلم الحديث. في المواقع العتيقة التي تحتوي على حفريات الإنسان، مثل التي في شرق أفريقيا، فإن نسبة البوتاسيوم/الأرجون يمكن أن تؤرخ الصخور في المناطق البُركانية. أما في الأماكن الأخرى، فإنه يمكن تطبيق التأريخ حسب سلاسل اليورانيوم على الصخور الغنية بكربونات الكالسيوم، مثل الرواسب الكلسية في الكهوف. كذلك يمكن استخدام تقنية اللمعان الحراري لتأريخ المواد الفخارية، وهي أقدم مادة غير عضوية متوفرة بكثرة في المواقع الأثرية التي يمتد عمرها ١٠ آلاف سنة، وأيضًا لتأريخ المواد غير العضوية الأخرى، مثل حجر الصوان المحترق. كذلك يمكن استخدام التلألؤ المحفَّز بصريًّا في رواسب معينة تحتوي على مادة أثرية، مثل الرواسب في الملاجئ الصخرية في أستراليا التي تتراوح أعمارها من ٥٣ ألف حتى ٦٠ ألف سنة، وهي من أهم الأدلة على وصول البشر الأوائل إلى هذه القارة. وأخيرًا يمكن استخدام الرنين المغزلي للإلكترونات على أسنان الإنسان والحيوان لتحديد فترات أبعد من التي يتوصل إليها الكربون المشع ١٤، مثل المواقع الإسرائيلية، التي يصل عمرها إلى ١٠٠ ألف سنة.

يوجد العديد من طرق التأريخ الأقل فاعلية، ولكنها بالغة التعقيد، وتبعث على الملل، ولا يسعُنا تناولها هنا. وعلى أي حال، فإن علماء الآثار لا يحتاجون حقًّا إلى معرفة الكثير عنها؛ لأن معظمهم يجدون صعوبة في فهم المبادئ العلمية التي ترتكز عليها حتى الطرق البسيطة منها، كما أن لديهم إيمانًا مؤثرًا، وغالبًا ما يكون في غير محله، بقدرة الباحثين

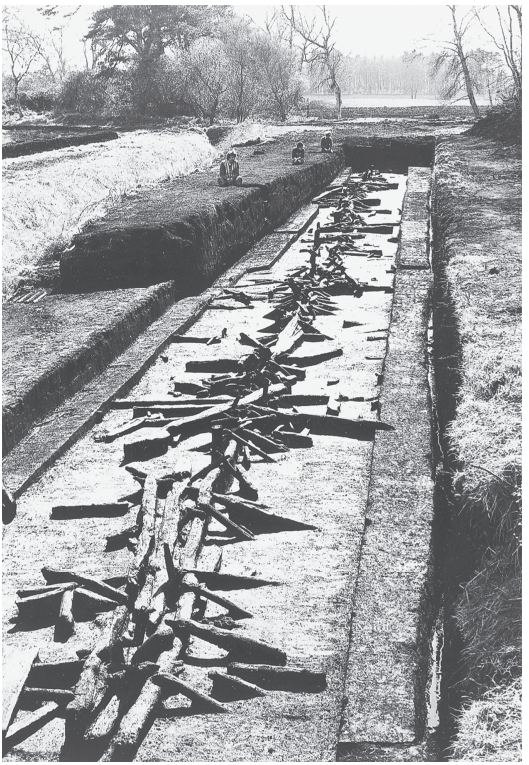

شكل ٢-١: الممر السهل، سهول سومرست.

— «العلماء الجادِّين» — على أخذ عينات من المادة المتوفرة والتوصل إلى مجموعة تواريخ مناسبة. وثقة عالم الآثار في المختبرات تقوضها حقيقة أنه عند تقديم عينة للتأريخ باستخدام الكربون المشع، عادةً ما يُطلب من عالم الآثار أن يذكر تاريخًا متوقعًا سلفًا! لكن بما أن علماء الآثار يعرفون أساسيات هذه الطرق والمواد التي تنطبق عليها والنطاق العمري، فبمقدورهم التركيز على قضايا أهم، مثل البحث عن المواقع التي لم تُمَسَّ ولم تتأثر بالعوامل الخارجية، وأخذ عينات بأقصى درجات العناية، وتجنب التلوث، وجمع أموال كثيرة من أجل دفع رسوم التحليلات في المختبرات. وكما يعتبر المراهقون مواعدة فتاة ليس بالأمر السهل، فإن عالم الآثار لا يجد عمليةَ التأريخ سهلة بالمثل.

الفصل الثالث

التكنولوجيا

وفروا لنا الأدوات وسنُنجز المهمة.

(وينستون تشرشل)

يعتمد علم الآثار اعتمادًا كبيرًا على الأدوات التي خلَّفها أسلافنا؛ وتشمل هذه الأدوات كل شيء بدايةً من رقاقة الحَجَر إلى السفينة الحربية، وعلى مدار فترة طويلة، كان تقدُّم البشرية يقاس إلى حدٍّ كبير استنادًا إلى تطور التكنولوجيا. وفي الحقيقة، اختار العلم أن يقسم ماضي الإنسان إلى «عصور» متعاقبة؛ مثل العصر الحجري والعصر البرونزي والعصر الحديدي، ويتخللها العديد من التقسيمات الفرعية اللاحقة، وقد اعتمد هذا التقسيم على التطور التكنولوجي. وعلى الرغم من مَنح الأنماط الأخرى للماضي قدرًا مساويًا أو أكبر من الاهتمام، كانت الأدوات، ولا تزال، عماد وجود الإنسان، كما أن كل الأدوات المتطورة في عصر الكمبيوتر انبثقت من الأدوات البسيطة التي خلَّفها أسلافنا. وعلى إثر ذلك، تمتلئ جعبة السجلات الأثرية بالمصنوعات اليدوية التي صنعها الإنسان.

يشمل «العصر الحجري القديم» ما يزيد على ٩٩ بالمائة من السجلات الأثرية، ويمتد هذا العصر من أول أداة يمكن تمييزها وعمرها ٢.٥ مليون سنة وحتى ١٠ آلاف سنة، وكانت الأدوات الحجرية هي السائدة في ذلك الزمان. وعلى الرغم من أن أجيالًا من العلماء كرَّسوا حياتهم لإجراء تحليلات وإعداد تصنيفات مفصَّلة لهذه الصخور، فليس لدينا أي فكرة عن مدى أهميتها أو عدم أهميتها لدى صانعيها. كذلك الأدوات الحجرية لا تتلف تقريبًا، في حين نجد المواد العضوية — مثل العظام والقرون والخشب والجلود والأوتار والحبال والسلاسل والريش وغيرها — تتحلل في معظم الظروف الطبيعية. ومن ثَم فقد فقدنا الجزء الأكبر من مجموعة أدوات العصر الحجري القديم إلى الأبد. ربما يكون الاسم

شكل ٣-١

الذي أطلقناه على تلك الفترة — «العصر الحجري» — مضلِّلًا، وربما كان الأَولى أن نطلق عليه اسم «العصر الخشبي القديم». وبالتأكيد تشير تحليلات التآكل في العديد من الأدوات الحجرية (انظر التالي) إلى أنها استُخدمت لمجرد شراء المواد العضوية أو لصناعة الأدوات منها. وهذا ما اعتمدت عليه تكنولوجيا العصور الأولى في الحقيقة.

بالطبع، كما هي الحال دومًا في علم الآثار، علينا أن نبذل قصارى جهدنا في مهمة مضنية، وبدلًا من أن ننهال باللعن على عدم اكتمال ما وصل إلينا (الصانع السيئ يلوم أدواته)، علينا أن نعمل وَفق ما يتوافر بين أيدينا. وفي الواقع، تعيش الآثار الباقية من العصر الحجري القديم في بعض الأحيان، مثل بعض الألواح الخشبية والرِّماح وقطعة

حبل في كهف لاسكو بفرنسا، وآثار سِلال أو منسوجات على الطين الحراري في بافلوف، وهو موقع تشيكي يعود عمره إلى ٢٦ ألف سنة. وبالنسبة إلى العصر الحجري القديم الأعلى (أي منذ ٤٠ ألف سنة إلى ١٠ آلاف)، لا تزال الأدوات المصنوعة من العظام والقرون باقية بأعداد كبيرة.

في الماضي، كانت الأدوات الحجرية توصف وتصنَّف طبقًا لأشكالها أو تقنية تصنيعها أو وظيفتها المفترضة. أما في العصر الحاضر، فإننا نعرف المزيد عن هذه الأنماط. يعود جزء كبير من الفضل في دراسات «التآكل المجهري» (أي الآثار الدقيقة الباقية على الأدوات بسبب وظائفها) إلى العمل الرائد الذي أنجزه سيرجي سيمينوف من الاتحاد السوفيتي في خمسينيات القرن العشرين، وقد اعتمد على ميكروسكوب عادي كي يدرس حالات الصقل المتنوعة والتصدُّعات في الأدوات الحجرية. ولكن هذه الدراسات دخلت مرحلة جديدة حينما ظهر الفحص بالميكروسكوب الإلكتروني؛ إذ إنه يتيح فحص التآكل المجهري عن قرب أكبر وبتفاصيل أكثر.

رغم ذلك، لن تفيد هذه الدراسات إذا لم نعرف الأنشطة التي تؤدي إلى هذه الآثار، وهنا موطن الفائدة من هذه التجارب. فقد صُنعت أنواع مختلفة ومطابقة من الأدوات الحجرية، واستُخدمت في مهام معينة، وبذلك تقيَّم الآثار الناتجة وأنماط التآكل وتُطابَق مع الموجودة على الأدوات الأثرية. إضافة إلى ذلك، فإن إعادة تصنيع الأدوات الحجرية — وهذه المهارة يعود الفضل فيها إلى الأثري الألماني إيه إيه رودي عام ١٧٢٠ — يعلمنا قدرًا كبيرًا عن تقنيات التصنيع الأصلية. والمسمى الاصطلاحي المعتمد في هذه الأيام هو «سلسلة المنطوق» chaine operatoire (حيث إن اللغة الفرنسية أصبحت هي المهيمنة في مجال أدوات العصر الحجري القديم) أو «سلسلة الإنتاج»، ويُقصد به عملية التصنيع بدايةً من توفير المادة الخام وحتى المُنتج النهائي. لكن توجد طريقة أبسط لتعزيز فهمنا لعملية التصنيع — من دون الاضطرار إلى عناء استنساخ تلك الأدوات — وهي مواءمة الأدوات الحجرية الفعلية بعضها مع بعض مرةً أخرى («إعادة مواءمتها» أو «جمعها في مجموعات»)؛ قد يكون هذا العمل مضنيًا ومستهلِكًا للوقت مثل أُحجِية الصور المقطَّعة الثلاثية الأبعاد، ولكنه قد يؤدي إلى نتائج مذهلة تُمكِّنك من متابعة كل مرحلة من عملية الإنتاج.

في بعض الحالات، يمكن تتبع عملية الإنتاج الأصلية عبر الملاحظة البسيطة للبقايا الأثرية؛ على سبيل المثال، يوجد في محجر التماثيل في جزيرة الفصح مئات التماثيل غير

المكتملة أو المهملة التي توضح كل مرحلة من مراحل التصنيع، وفي موقع كاستيلبرج بجنوب أفريقيا الذي يعود تاريخه إلى نحو عام ٩٥٠ ميلادية، توجد منطقة تصنيع؛ حيث تُرى كل خطوة في عملية تصنيع أدوات عظمية معينة، وأيضًا بإمكان المختصين «تحليل» العينات الباقية من المنتجات المخيطة في العصور الأولى — من أمريكا الجنوبية على سبيل المثال — حيث إنهم قادرون على فهم مراحل التصنيع المحددة. وبالمثل، فإن فحصًا بسيطًا للأوعية الفخارية يكشف ما إذا كانت شُكلت يدويًّا أم باستخدام عجلة صنع الأواني الفخارية. كذلك توفر المنتجات الثانوية للمصنوعات المعدنية — السبائك ونُفايات الصَّهر والقوالب والمساكب والمصبوبات غير المكتملة والنُّفايات المعدِنية، وما إلى ذلك — أدلةً على طرق التعدين؛ فقد أنتج مسبك برونزي عمره ٥٠٠ سنة قبل الميلاد في الصين ما يزيد على ٣٠ ألف قطعة من هذا النوع.

نُفِّذت كذلك العديد من الإجراءات التجريبية المستخدَمة في دراسة الأدوات الحجرية عند دراسة تكنولوجيا المواد الأخرى والأدوات الخاصة بالعصور اللاحقة؛ مثل الأدوات الخشبية والألياف والمنسوجات والأدوات الفخارية والزجاجية ومختلف الأنواع من الأدوات المعدنية. على سبيل المثال، نفَّذ الباحث الإيطالي فرانشيسكو ديريكو تجارب لوضع المعايير المجهرية الخاصة بالتعرف على الآثار المتبقية على الأدوات المصنوعة من العظام والقرون والعاج، عن طريق الاستخدام الطويل الأجل، ونقلها واتخاذها باعتبارها معلقات. وأيضًا، نُفذ عدد لا يُحصى من التجارِب التَّكرارية التي تنطوي على صناعة الفخار والمعادن، ومن دونها ستكون معرفتنا بمثل هذه التكنولوجيا بدائية في أحسن الأحوال.

في الحقيقة، أصبح هذا النوع من «علم الآثار التجريبي» فرعًا رئيسيًّا في المجال؛ فقد أُنشئت «قُرًى» كاملة في العديد من البلدان — لا سيما في شمال غرب أوروبا — لدراسة التقنيات المتنوعة، مثل بناء المنازل والزراعة والجزارة والتخزين، وصناعة الفخار أو الأدوات الحجرية أو الأدوات المعدنية.

بطبيعة الحال، حتى وإن ظلت هذه التجارب تنفَّذ على مدار عقود، فإنها ستبقى قصيرة الديمومة حين تقارَن بالمهارات والبراعة المتراكمة التي ظلت تُتَوارث على مدار قرون وآلاف السنين في الماضي السحيق؛ ولا يسعُ أي تجربة رصدية في الوقت الحاضر أن تبرهن على شيء من الماضي على وجه اليقين. وعلى الرغم من ذلك، فإن الأفكار المحدودة التي توفرها هذه التجارب لا تزال مهمة ومفيدة، كما أن العديد منها يمكن أن يُتَّخذ على سبيل الاستمتاع. فحين يُسمح للإنسان بإحراق منزل، أو مهاجمة زميل بسيف برونزي،

أو الرجم بحجر، أو تلويث جدار أو تنُّور بروث ماشية، يمكن أن يُطلق العنان لكل الشر الذي بداخله ويسمي ذلك «عِلمًا».

يوجد نهج مشابه لهذه التجارب، غير أنه ليس عمليًّا بقدرها، ويطلق عليه اسم «علم الآثار الإثنوجرافي». على مدار فترة طويلة، أصاب الإحباط علماء الآثار بسبب قلة المعلومات المفيدة التي يُمدهم بها علماء الأنثروبولوجيا عن الشعوب «البدائية» الموجودة في وقتنا الحاضر. فقد أصاب هؤلاء العمال الميدانيين الهوس بأنظمة القرابة والنَّسب وأعمال السحر وما شابهها؛ لدرجة أنهم لم يهتموا كثيرًا بالجوانب التي تمثل أهميةً كبرى لدى علماء الآثار؛ أي لم يهتموا كيف أنتجت هذه الشعوب ما من شأنه أن يصبح سجلًّا أثريًّا. وقد برهنت صناعة الفخار على أنها ذات شهرة خاصة في دراسات علم الآثار الإثنوجرافي، ولكن يريد علماء الآثار أن يعرفوا عن كل الأشياء؛ أي يريدون معرفة كيف صُنعت هذه الأدوات، ومتى ولماذا، ومَن صانعُها، وما مقدار الوقت والجهد المبذول في الاستثمار فيها، ولماذا زُينت بطرق معينة، وكم مرة كُسرت وما ظروف الكسر، وكيف وأين تخلصوا منها؛ يريدون معرفة الأنشطة اليومية الرتيبة التي عادةً ما تمرُّ دون أن تُلحظ إلا أن تصبح محط اهتمام على وجه التحديد، حتى في مجتمعنا. يهتم علم الآثار إلى أقصى حد بالأمور التافهة، مثل توزيع القمامة، والنمط على وعاءٍ ما، وشكل بلاطات السقف.

هذا الاهتمام الزائد بالتفاصيل التي تبدو غير مهمة يعزز لدى غير المختصين في علم الآثار انطباعًا أنه علمٌ لا أهمية له ورفاهية عديمة الفائدة. وفي عالمٍ تحكمه قوى السوق، لا بد لعلم الآثار أن يبرر وجوده؛ لا بد أن يثبت قيمته كي يلقى الدعم اللازم. وفي بعض المناطق، يجد علم الآثار قيمته في الأهمية الكبرى للسياحة (الفصل التاسع). وفي أماكن أخرى، قد يكون لعلم الآثار مِيزة كبرى في بعض التطبيقات العملية؛ على سبيل المثال، يُعتبر «علم الآثار الزلزالي» ذا أهمية في الصين؛ إذ تسجل النقوش القديمة والوثائق الزلازل في الماضي، وكذلك الأمر في الشرق الأدنى؛ إذ تعود الأدلة التاريخية والكتابية والأثرية على الزلازل القديمة إلى ١٠ آلاف سنة. وأيضًا يمكن أن يعطي رفات الإنسان معلومات مفيدة عن تاريخ بعض الأمراض وعن علوم الأمراض.

على الرغم من ذلك، تكمن أبرز الإسهامات العملية في مجال تكنولوجيا الزراعة. وفي بعض الأحيان، يكون لعلماء الآثار فضل كبير في ري الصحاري القاحلة أو في زيادة غلة المحاصيل زيادةً هائلة. لكنهم لا يفعلون ذلك من منطلق براعتهم، بل من منطلق إحياء الحكمة المنسية التي تمتَّع بها أسلافنا. على سبيل المثال، سكن شعب الأنباط الذي

قطن صحراء النَّقب الإسرائيلية قبل ٢٠٠٠ عام في المدن، وزرع العنب والقمح والزيتون. وتضافر التصوير الجوي مع علم الآثار وكشفا أنهم تمكَّنوا من ذلك عبر نظام بارع لتوجيه مياه الأمطار التي تهطل من العواصف الممطرة النادرة في المنطقة إلى قنوات الري وخزانات المياه. ومن ثَم تمكَّن العلماء من استخدام الطرق نفسها لإعادة إعمار المزارع القديمة في المنطقة وقد أصبحت تنتج محاصيل وافرة حتى في سنوات الجفاف.

الأكثر إبهارًا هو الأحداث التي وقعت في منطقة الهضاب العالية في بيرو وبوليفيا. فقد كشف التصوير الجوي والتنقيب عن أنه في سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد تقريبًا، فإن المنطقة المحيطة ببحيرة تيتيكاكا خُصص فيها ما لا يقل عن ٢٠٠ ألف فدان لنظامٍ زراعي يقوم على «الحقول المرتفعة»، وهو عبارة عن أسطح زراعية مرتفعة تتكون من التربة المحفورة من القنوات التي بينها. وقد برع أهل المنطقة في تهيئة المنطقة بحيث تتوافق مع ظروف الارتفاع بمقدار ٤ آلاف متر، ومع الظروف المحلية والمحاصيل الجذرية التقليدية. وعلى الرغم من ذلك، فقد هُجرت هذه المنطقة بعد غزو الإنكا منذ ٥٠٠ سنة، وقد أثبتت الميكَنة الزراعية الثقيلة والمخصبات الكيميائية والري والمحاصيل المستوردة فشلًا ذريعًا في هذا المناخ. ولذا طهَّر علماء الآثار بعض الحقول القديمة المرتفعة وأحيَوها، ولم يستخدموا غير الأدوات التقليدية وزرعوا فيها البطاطس وغيرها من المحاصيل الجذرية التقليدية. لم تتأثر الحقول بالجفاف الشديد ولا بالصقيع ولا بالفيضانات الجارفة، كما أثمرت المحاصيل سبعة أضعاف محاصيل الحقول ذات الزراعة الجافة. والآن، تتبع عشرات المجتمعات وآلاف الناس أساليب الزراعة التي ابتكرها أسلافهم، وذلك بفضل علماء الآثار.

وعلى الجانب الآخر، بإمكان علم الآثار أن يَلفت الانتباه إلى الكوارث البيئية في الماضي والتي كان للإنسان دخل كبير في حدوثها، مثل الانهيار المفاجئ الذي وقع عام ٩٠٠ بعد الميلاد لمدينة البتراء البيزنطية، بعد قرون من إزالة الغابات بطريقة مجحِفة، أو مثل الحالة الأكثر تخريبًا لإزالة الغابات في جزيرة الفصح، التي طمرت، تقريبًا، ثقافة العصر الحجري الفريدة في تلك الجزيرة الصغيرة (أشير إلى هذه القصة — بحبكتها مع قصة روميو وجولييت — في فيلم «رابا نوي» الذي أُنتج عام ١٩٩٤، وقد تبين أنها واقعة كارثية على حدٍّ سواء).

تتوارد الأمثلة الأخرى من شعب الأناسازي الذي عاش في جنوب غرب أمريكا. فقد كانت مستوطنات منطقة تشاكو كانيون متقدمة للغاية، واحتوت على أكبر وأعلى المباني في أمريكا؛ إذ إنها تضاهي ناطحات السحاب. بدأ تشييد هذه المباني في القرن العاشر

بعد الميلاد، وقد استُخدم فيها ما يزيد على ٢٠٠ ألف شجرة صنوبر وتنوب. وقد أعطت بقايا النباتات المتصلبة في البول المتبلور في أكوام القاذورات التي خلفتها حيوانات جرذان الغابة نظرة عن التغيرات التي طرأت على الغطاء النباتي للمنطقة بمرور الوقت، وبات واضحًا أن عمليات قطع الأشجار المجحفة استمرت على مدار قرون، ولم تكن من أجل الحصول على مواد البناء فحسب، بل لتلبية متطلبات الوقود الناجمة عن زيادة السكان. ولم تكن ثَمة حيلة لإيقاف الأضرار البيئية الواسعة والناجمة عن ذلك، وقد كانت من العوامل الرئيسية لهَجر الموقع. بعبارة أخرى، بمقدور علم الآثار أن يوصل رسائل قوية من الماضي، ولكن للأسف، وكما قالوا قديمًا، الدرس الوحيد الذي نتعلمه من التاريخ هو أننا لا نتعلم من التاريخ أبدًا.

الفصل الرابع

كيف كانت معيشة الناس قديمًا؟

جزء كبير من علم الآثار مكرَّس لدراسة «أنماط الحياة لدى أناس أصبحوا في عداد الموتى وأصحاب القبور»، إذ يحاول أن يخمِّن كيف كانت أحوال الناس، وكيف كانت أحوالهم الصحية، وماذا كان طعامهم، وما أسباب موتهم. ليس بالضرورة أن تكون ثَمة صلة بين الطعام وأسباب الموت، على الرغم من أن زوجة الماركيز داي السمينة — من القرن الثاني قبل الميلاد في الصين — ماتت فيما يبدو إثر أزمة قلبية بسبب ألم حاد في حصواتها الصفراوية بعد ساعة، أو نحو ذلك، من التهام كمية كبيرة من البطيخ (فقد عُثر على ١٣٨ بذرة بطيخ داخل معدتها وأمعائها في جثتها المحنطة). يبدو أن هذه السيدة أحبَّت الطعام؛ إذ احتوت مقبرتها على عدد كبير من الأطعمة المعبأة في أوعية، وعلى الأوعية ملصقات وقصاصات تصف مكونات هذه الأطعمة؛ وكأنها نوع من الوجبات السريعة الصينية لصاحبة القبر!

كسب العيش — السعي من أجل الطعام — أهم ضرورة من ضرورات الحفاظ على الحياة، وقد طور علم الآثار العديد من الطرق لدراسة مفاتيح الأدلة التي تبين أنواع الأطعمة لدى الشعوب القديمة. الغالبية العظمى من هذه المفاتيح تتخذ شكل بقايا الحيوانات والنباتات التي قد توجد في المواقع التي كان يقطنها الإنسان، والتي يدرسها علماء الآثار المهتمون بعلم الحيوان وعلم النبات على التوالي. وبالفعل تكون هذه البقايا «في بعض الأحيان» مما أكله الإنسان، ولكن ليس بالضرورة أن تكون كل البقايا كذلك. فالنباتات على سبيل المثال يمكن استخدامها في العديد من الأغراض، بدايةً من المادة الخام وحتى الأدوية، وكذلك الحيوانات تؤخذ منها مواد مفيدة، مثل العظام وقرون الوعل وقرون الحيوانات الأخرى والعاج والدهون والأوتار والجلود والفراء، وكذلك يؤخذ من الطيور العظام والريش. إضافة إلى ذلك، يُحتمل أن الحيوانات المفترسة الأخرى جلبت

العديد من البقايا العضوية — لا سيما بقايا الحيوانات والطيور — إلى الموقع، أو ربما كانت حيوانات مستأنَسة (على الرغم من أن الكلاب والخنازير الغينية كانت تأكلها شعوب بعض الثقافات في الماضي، ولا تزال في بعض بقاع الأرض).

الدليل الوحيد الذي لا يقبل الشك على أن النبات أو الحيوان قد أُكل بالفعل هو وجوده في معدة الإنسان أو برازه المتحجر (الغائط القديم). ولكن نظرًا إلى ندرة هذه الاكتشافات، فلا مناص من افتراض أنها مأكولات، وينبغي التوصل إلى هذا الاستدلال من سياق الاكتشافات وظروفها، مثل الحبوب المتفحمة في الفرن، أو العظام المقطعة أو المحترقة، أو البقايا في الأوعية. على سبيل المثال، لا يقول اللبيب إن السكان في موقع من مواقع العصر الحجري القديم تنتشر فيه عظام أيلِ الرنَّة كانوا نباتيين، وصادف أنهم لم يحبوا لحم أيل الرنة! أو ربما احتاجوا إلى قدر كبير من العظام والقرون والجلود، وعافت أنفسُهم أكل اللحم، ولكن هذا المثال محتمل من الناحية النظرية.

حتى إن وُضع افتراض مقبول بأن البقايا بقايا طعام، فثَمة تحديات أخرى ينبغي مواجهتها. على سبيل المثال، يجب على المرء أن يحاول ويكتشف العلاقة النسبية للأطعمة المختلفة؛ فعادةً ما تكون النباتات منقوصة التمثيل؛ لأن بقاياها غالبًا ما تُحفظ بحالة سيئة، هذا إن تحللت بالكامل. وينطبق الأمر نفسه على عظام الأسماك. وأيًّا ما كانت بقايا الطعام، فعلى المرء أن يقرر هل هي بقايا حيوانات برية أم مستأنَسة، وهل تمثل حقًّا النظام الغذائي لقاطني المكان أم لا، وقد ينطوي هذا على تخمين وظيفة الموقع، ومدة البقاء فيه (سواء أكانت قصيرة أم طويلة الأجل)، وهل كان موطنًا غير منتظم أم موسميًّا أم دائمًا؛ فالمسكن طويل الأجل من المرجَّح أن توجد فيه بقايا طعام تمثيلية أكثر من موقع الذبح أو المعسكر المتخصِّص.

في السنوات الأخيرة، طُورت تقنيات حديثة معقدة بإمكانها أن تكتشف بقايا الطعام، وغالبًا ما تحددها على الأدوات والأوعية من الداخل. على سبيل المثال، في جُزر سليمان بميلانيزيا، عُثر على بقايا نشا على أدوات حجرية يعود تاريخها إلى ٢٨٧٠٠ سنة، وهذا الاكتشاف يمثل أقدم دليل في العالم على استهلاك النباتات الجذرية (القلقاس). وأثبت التحليل الكيميائي للبقايا في الأمفورات (جرار تخزين كبيرة من العصر الروماني) أن العديد منها احتوى على نبيذ وزيت زيتون — طبقًا لما افتُرض — ولكن بعضها احتوى على دقيق القمح. ظهرت أدلة من العصور الأولى على وجود النبيذ — وهذا الموضوع يروق كثيرًا لعلماء الآثار — من تحليل بقايا مائلة إلى اللون الأصفر داخل جرة فخارية من أحد

مواقع العصر الحجري الحديث في حاجي فيروز تيبي بإيران، يعود تاريخها إلى ٥٤٠٠ إلى ٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد. وقد تحددت هذه البقايا بأنها حمض الطرطريك، ويكاد يكون موجودًا بشكل طبيعي وحصري في العِنب؛ ولذا اعتُبر هذا دليلًا على تصنيع النبيذ المعالج بالراتنج، وهو الأقدم في العالم؛ إذ إنه أقدم بمقدار ٢٠٠٠ سنة مما كان يُعتقد سابقًا. إضافة إلى ذلك، عُثر على آثار نبيذ في جرة سومرية بسعة ٣٠ لترًا في موقع يُسمى جودين ديبي في غرب إيران، يعود تاريخها إلى نحو ٣٥٠٠ سنة قبل الميلاد، وفي الوقت نفسه حوت قطع فخارية في الموقع نفسه آثار إنتاج بيرة الشعير، وهذا دليل واضح على أن قدماء الإيرانيين عرفوا كيف يقضون أوقاتًا مرحة، ولم يقتصر الأمر على الإيرانيين؛ فقد عُثر على مقبرة لأحد ملوك مصر الأوائل في أبيدوس يعود تاريخها إلى نحو سنة ١٥٠ قبل الميلاد، وهذه المقبرة فيها ثلاث غُرف معبَّأة بعدد ٧٠٠ جرة، وأكَّد التحليل الكيميائي للقشور الصفراء الباقية فيها أنها كانت تحتوي على النبيذ، وقد بلغ إجمالي سعة الجرار ١٢٠٠ جالون!

كشفت التحليلات الكيميائية للمواد العضوية القديمة المتصَّة في الجِرار الفخارية من العصر الحجري الحديث التي عُثر عليها في قرية جياهو بالصين أن صناعة شراب الأرز والعسل وبعض الفاكهة (ربما العنب) تعود إلى ٩٠٠٠ سنة؛ ومن ثَم فإن «نبيذ الأرز» الصيني أقدم نبيذ عُرف حتى الآن!

اكتشف علماء الكيمياء كذلك على آثار أفيون في زهرية من قبرص عمرها ٣٥٠٠ سنة، ما يوحي إلى بعض العلماء أن تجارة المخدِّرات كانت موجودة في دول شرق البحر الأبيض المتوسط حينذاك. أما في بريطانيا على الجانب الآخر، فعُثر على أوعية فخارية قديمة، ويُرجَّح أنها كانت تحوي موادَّ أقل تحفيزًا، مثل بقايا الكرنب الملفوف.

فيما يتعلق ببقايا الحيوانات، فإنها أيضًا لا تمثل إلا جزءًا صغيرًا لما كان موجودًا في الأصل؛ فالعظام ربما أُزيلت من الموقع أو استُخدمت في صناعة الأدوات أو غُليت للتخزين أو أكلتها الكلاب أو الخنازير. لكن لم تترك الأطعمة المهمة الأخرى، مثل اليرقات أو الدم، أي أثر؛ وعلى الرغم من أننا نميل إلى افتراض أن النظام الغذائي عادةً ما اعتمد على الحيوانات آكلة العشب والأسماك، فربما في بعض الثقافات أُكلت الحشرات؛ فقد عُثر على الجراد في فرن خاص في ملجأ صخري بالجزائر يبلغ عمره ٦٢٠٠ سنة.

من المجالات الشائكة حتى الآن أكل لحوم البشر؛ والطريقة الوحيدة لإثبات أنها وُجدت في الماضي بالفعل هي العثور على قطع من أنسجة بشرية في معدة إنسان أو

برازه المتحجِّر، ولكن لم يعثر أحد على شيء من هذا حتى الآن. أظهرت عمليات إعادة التقييم الأخيرة للأدلة الأثرية والأنثروبولوجية على أكل لحوم البشر أن كل المزاعم مفتوحة لتفسيرات أخرى، مثل العنف أو الطقوس الجنائزية المعقدة، ولكن يُصِرُّ بعض العلماء على تفسير عظام الإنسان المفسوخة أو المصابة بكدمات أو التي عليها علامات جروح — كتلك التي في بعض مواقع شعب الأناسازي في جنوب غرب أمريكا ويبلغ عمرها تقريبًا ١١٠٠ سنة قبل الميلاد — بأنها أدلة على أكل لحوم البشر. التفسير يحتمل الصحة، ولكن لا سبيل بالفعل إلى معرفة ذلك؛ فكثير من الاكتشافات في علم الآثار تتأثر بمسألة الإيمان والتفضيلات الشخصية. ولا نعلم على وجه اليقين، إلا من الحالات الأخيرة، أن أكل لحوم البشر يمكن أن ينشأ بالتأكيد بين أناس فقدوا الأمل في العثور على طعام ويريدون الحفاظ على حياتهم (مثل ما حدث على إثر تحطم طائرة الإنديز، أو في معسكرات الاعتقال النازية) وبين المصابين باضطراب في العقل، ولكن وجود «عادة أكل لحوم البشر» — حيث تكون جزءًا مألوفًا أو شعائريًّا من حياة الناس — أصبح موضع شك كبير على مدار السنوات القليلة الماضية؛ فالحالات ذات التوثيق المحكم القائمة على الرصد المباشر بدلًا من الشائعات أو الدعايات نادرة للغاية في الحقب التاريخية، ومن ثَم يشق علينا تقدير مدى شيوع هذه العادة في زمن ما قبل التاريخ، فضلًا عن شيوعها في الماضي السحيق.

وكما هي الحال مع النباتات، فإن بقايا الحيوانات تطرح أفكارًا بالغة الأهمية، رغم استمرار احتدام الجدال حول موضوع الأدوات الحجرية الدموية، وكذلك لا يزال الخلاف قائمًا حول الادِّعاءات بأن بُقَع الدم يمكن أن تبقى على المصنوعات اليدوية لآلاف السنين، ويمكن تحديد الكائن الذي تنتمي إليه. وقد كشف التحليل الكيميائي للبقايا في الأوعية على وجود مواد مثل الحليب والجبن والدهن.

كثيرًا ما صُورت المأكولات النباتية والحيوانية في الفن والأدب، مثل النماذج الخشبية الموجودة في المقابر المصرية وتصور الخبيز والتخمير، والنصوص التي تصف طعام الجيش الروماني، والنصوص الهيروغليفية المصرية التي تتحدث عن حِصَص العمال من الذُّرة، وأقدم كتاب طهي في التاريخ، وهو عبارة عن ثلاثة ألواح بابلية من الطين يبلغ عمرها ٣٧٥٠ سنة، ويحتوي على ٣٥ وصفة لمختلف الطواجن الغنية باللحوم. ولكن بغضِّ النظر عن وفرة الأدلة من الفنون والنصوص، فإنها تعطي لمحات خاطفة عن عيش الكفاف. لكن حتى هذه اللمحات الخاطفة تنبثق من اكتشافات عرضية لأكلات حقيقية، مثل الأكلات التي عُثر عليها في مدينة بومبي الرومانية؛ إذ إنه لما طُمرت المدينة

تحت الأرض بفعل انفجار بركاني في عام ٧٩ ميلادية، عُثر على أكلات السمك والبيض والخبز والمكسرات سليمة على الطاولات بالإضافة إلى الأطعمة في المتاجر؛ ولكن هذه ليست سوى عينة صغيرة من مأكولات يوم واحد. ينطبق الأمر نفسه على الأدلة (لدى أصحاب البِنية القوية والأمعاء القوية) التي اكتُسبت من القنوات الهضمية في الأجسام المحفوظة أو من الغائط البشري. فقد عُثر على مومياء رجل تولوند من العصر الحديدي في مستنقَع دِنماركي، واكتُشف أنه تناول عصيدة قبل الوفاة (وحاول السِّير مورتيمر ويلر، في عملٍ رائد من علم الآثار التجريبي، أن يعيد صناعة هذا الطعام، ووجد أن مذاقه كريه)، وكذلك اكتُشف أن رجل ليندو البريطاني أكل فطيرة الرقاق المحلاة، وهي نوع من الخبز الخشِن. وكشف تحليلٌ لعينات براز متحجِّر من كهف لافلوك بولاية نيفادا يبلغ عُمر بعضها ٢٥٠٠ إلى ١٥٠ عامًا عن وجود بذور وقطع صغيرة من ريش الطيور وقشور الأسماك؛ وواحد من هذا البراز عمره ألف سنة احتوى على حسَك من ١٠١ سمكة صغيرة من أسماك الشوب، وهذه تمثل إجمالي وزن ٢٠٨ جرامات (٧,٣ أونصات) للسمكة الحية، وهذه كمية سمك في وجبة فرد واحد.

الوجبات بكل أشكالها لها قيمة، ولكن دائمًا ما يحبذ علم الآثار النظرات طويلة المدى (وهذا صلب تخصصه على كل حال) التي تتطلب تقييمات للنظام الغذائي. ومن سُبل تحقيق هذه الغاية دراسة تراكمات بقايا الطعام على مدار فترة من الزمن — في تعاقب الطبقات المتراصَّة في الموقع — ولكن توجد طرق مباشرة أكثر للمعرفة عن النظام الغذائي، وهي دراسة تآكل الأسنان وكيمياء العظام. والسبب في ذلك أن «أجسامنا تتكون مما نأكله»، بمعنى أن النظام الغذائي له تأثير جذري في الأسنان؛ نعم، والدتك على حق، كما يترك النظام الغذائي بصمات كيميائية مميزة في العظام.

تتكون الأسنان من أصلب نسيجين في الجسم؛ ولذا فإنها عادةً ما تبقى بحالة جيدة. ويُظهر الفحص المجهري لأسطح الأسنان عن وجود تآكلات وكشوط يمكن أن يكون لها علاقة باللحوم والنباتات في النظام الغذائي. وكما هي الحال مع دراسات التآكل المجهري في الأدوات (الفصل الثالث)، فإننا نعرف من عينات حاضرة في زماننا — وهنا لا تكون هذه العينات نُسخًا بل أناس أحياء، مثل شعب الإسكيمو آكل اللحوم أو شعب ميلانيزيا النباتي — ما أنواع البقايا التي تتركها الأنظمة الغذائية المختلفة؛ ومن ثَم يمكننا التحلِّي بقدرٍ من الثقة في مطابقة الأمثلة الأثرية بهذه العينات. وبذلك، يتبين أن الإنسان القديم بدأ يقلل كميات اللحوم بمرور الوقت، ويُدخل نظامًا غذائيًّا أكثر تنوعًا. وقد ينطوي

تحلُّل الأسنان على معلومات وفيرة؛ إذ إنه يدل على تناول كميات كبيرة من النشويات والسكريات.

قد تكشف الأسنان عن موطن نشأة الإنسان؛ ومن ثَم تُبين هِجراته في حياته لاحقًا. تتكون طبقة المينا على الأسنان في مرحلة الطفولة؛ ومن ثَم بإمكان بنيتها الكيميائية أن تلقي الضوء على الفترة الزمنية التي تكونت فيها، وذلك عبر نظائر الأكسجين والسترونتيوم التي تحتوي عليها. يُكتسب الأكسجين من شرب المياه، وفي المناخ الحار تزيد نسبة أكسجين-١٨ على نسبة أكسجين-١٦، وتقل نسبته في المناخ البارد. أما السترونتيوم فيأتي من جيولوجيا المنطقة، ومن ثَم فإن نسبة السترونتيوم-٨٧ إلى نسبة السترونتيوم-٨٦ تختلف حسب المنطقة الجغرافية؛ فهذا العنصر ينتقل من الصخور التي تعرضت للتجوية إلى التربة ثم إلى السلسلة الغذائية، ثم ينتهي بها المآل إلى عظام الإنسان وأسنانه. وبالجمع بين النظيرين، ربما يُستدل على المكان الذي قضى فيه الإنسان طفولته. على سبيل المثال، كشفت أسنان «نبَّال أميسبوري» — وهو هيكل عظمي لرجل عاش في الألفية الثالثة قبل الميلاد، وقد عُثر عليه مدفونًا بالقرب من ستونهِنج عام ٢٠٠٢ — أنه نشأ في مناخ أشد بردًا من مناخ إنجلترا، وفي الوقت نفسه نسبة السترونتيوم استبعدت معظم المناطق الشمالية؛ ومن ثَم يُعتقد أنه ربما وُلد في منطقة عند سفح جبال الألب ثم انتقل إلى إنجلترا في مرحلة لاحقة من حياته.

لكن الإنجاز الأعظم تحقَّق لما أدركنا أن التحليل الكيميائي للكولاجين في عظم الإنسان يمكن أن يكشف لنا الكثير عن النظام الغذائي ذي المدى الطويل. تحتوي مختلف أصناف النباتات على نِسَب مختلفة من نظائر معينة من الكربون أو النيتروجين، وبما أن النباتات تأكلها الحيوانات، فهذه النسب تكون ثابتة في الأنسجة العظمية لدى الحيوان والإنسان. ومن ثَم فإن تحليل الكولاجين يمكن أن يُبين أي النباتات البحرية أو البرية التي كانت سائدة في النظام الغذائي؛ ومن ثَم الموارد البرية أو البحرية من الأنواع الأخرى. وتفيد هذه التقنية في اكتشاف التغير على مدار الزمن إذا توافرت عظام بشرية من فترات مختلفة. على سبيل المثال، كشفت عظام من سهول أورينوكو الفيضية في فنزويلا عن تحول جذري؛ من نظام غذائي غني بصنف من النباتات (يشتمل على نباتات المنيهوت) في عام ٨٠٠ قبل الميلاد، إلى نظام غذائي قائم على النباتات، مثل الذرة، بحلول عام ٤٠٠ بعد الميلاد.

يحظى موضوع دراسة رُفات الإنسان بشعبية جارفة بين العامة الذين يعشقون الأشياء المروعة والمخيفة؛ فدائمًا ما تكون المومياوات عوامل جذب كبرى في المتاحف. لكن

شكل ٤-١

الكتب القصيرة التي تتحدث عن علم الآثار بوجه عام تذكر النَّزر اليسير أو لا تتعرض إلى الحديث عن الناس أنفسهم، بل إنها تصب تركيزها على أدواتهم ومساكنهم وفنونهم وسلوكياتهم. وهذا موقف غريب؛ ففي نهاية الأمر، إذا كان علم الآثار يهدف إلى إعادة إحياء حياة الذين قدموا هذا السجل الأثري، فما الدليل المباشر أكثر من رُفات الممثلين في المسرحية التي نحاول أن نعيد عرضها؟

على الرغم من أن هذا الرفات نقَّب عنه عالم الآثار، فقد تُركت مهمة دراسته لعالم الأنثروبولوجيا. لكن بغضِّ النظر عن هُوية من أجرى التحليل، فإن البيانات الناتجة عنه ذات أهمية كبيرة. فرُفاتُ الإنسان من شأنه أن يُبين عمر المتوفى وجنسه ومظهره وحالته الصحية، وسبب موته في بعض الأحيان، وحتى أقارب العائلة في أحيان أخرى. وفي السنوات الأخيرة، بدأت التطورات الجديدة في علم الكيمياء الحيوية — لا سيما في علم الوراثة — أن يحل محل الاعتماد الكبير على العظام، كما أن دراسة الحمض النووي لأصحاب العصور الأولى — ولا يقتصر الأمر على البشر (بما في ذلك إنسان النياندرتال) بل يشمل العديد من أنواع الحيوانات والنباتات — بالفعل توفر العديد من الرؤى الجديدة الأساسية عن أصول البشر وانتشارهم، وعن الحيوانات التي استأنسوها، وعن غذائهم. وسيتوسع هذا المسار البحثي سريعًا مع تحسن قدرتنا على استخلاص وتكبير الأجزاء الصغيرة من الحمض النووي من العظام والبقايا العضوية الأخرى.

للأسف، إلى جانب الخُطا الكبيرة التي نحققها في العلم، فإننا نواجه ضغطًا مستمرًّا في وسائل الإعلام لاستخدام التكنولوجيا الحديثة في استنساخ (وبالتالي إحياء) الأنواع المنقرضة. وفي حين أن المرء قد يجد هذا المسعى مهمًّا وجديرًا بالاهتمام في المخلوقات التي انقرضت مؤخرًا، مثل طائر الدودو أو البَبْر التسماني (النمر أو الذئب التسماني)، فلا يوجد مسوغ لمحاولة إحياء الماموث، على الرغم من أن بعض العلماء اليابانيين يبدو أنهم مهووسون بهذا الاحتمال. فقد كان للحيوان حقبته، وقد اختفت مواطن العصر الجليدي منذ أمدٍ بعيد. إضافة إلى ذلك، أيُّ استنساخ سيتضمن أنثى الفيل، وربما لا يكون المتولد منها ماموثًا حقيقيًّا، وفي كل الحالات، سيكون هذا الحيوان غريبًا؛ إذ إن الفِيَلة حيوانات اجتماعية بامتياز، ومن ثَم سيحتاج الماموث إلى قطيعه. وقد أشير كثيرًا إلى أن التكلفة الضخمة لهذا المشروع من الأفضل أن توجَّه إلى حماية الفِيَلة الحية من اهتمامات الصيادين المخالفين والباحثين عن العاج، وبذلك يُضمن عدم انقراضها هي الأخرى. أما بالنسبة لاستنساخ إنسان النياندرتال — وهو مشروع آخر أشبه بمشروع فرانكنشتاين الذي يُذكَر كثيرًا — فإن المشكلات الأخلاقية المترتبة على ذلك سوف تكون هائلة.

الغالبية العظمى من الرفات البشري الباقي عبارة عن هياكل عظمية أو جثث محارق. لكن لدينا العديد من الجثث المحفوظة في ظروف أفضل، وسليمة إلى حد ما، فهي إما جُففت أو جُمدت أو تشبَّعت بالماء أو حُنِّطت عن عمد، وهذه الجثث يمكن أن تخضع لمجموعة كبيرة من الاختبارات، مثل فحوصات الطب الشرعي وعمليات المسح بالكمبيوتر والمناظير الداخلية التي تدخل من كل فتحة في الجسم.

حتى في الحالات التي تختفي فيها الجثث، فإنه يمكن اكتشاف آثارها. من أشهر الأمثلة: التجاويف التي خلفتها جثث أهل بومبي حين تحللت بداخل الغلاف المتصلب من الرماد البركاني، فحين يصب الجص في هذه التجاويف، تكشف القوالب الناتجة عن المظهر الجسدي وتسريحة الشعر والملابس، وحتى التعبير الذي ارتسم على الوجه لحظة الوفاة (ويُشاع أن سجن المدينة احتوى على رفات العديد من عتاة المجرمين). كذلك احتوى هذا السجل الأثري على العديد من آثار الأقدام وبصمات الأصابع والرسومات المطبوعة على اليد.

أحد الأمثلة المذهلة على البقايا المختفية والقابلة للاكتشاف يتعلق بالسر الذي تطرحه العديد من الأواني السليمة والفارغة تمامًا في الوقت نفسه، التي عُثر عليها مدفونة في أقبية المنازل الألمانية التي يعود تاريخها إلى الفترة من القرن السادس عشر وحتى

شكل ٤-٢

التاسع عشر الميلادي. كشفت الاختبارات الكيميائية للبقايا التي وجدت داخل الأواني عن وجود كوليسترول (ما يشير إلى وجود أنسجة إنسان أو حيوان)، وعن وجود هرمونات استيرويدية مثل الأوسترون؛ لذا من شبه المؤكد أن الأواني استُخدمت لدفن المشيمة البشرية (بعد الولادة)، وهذه كانت عادة محلية حرصًا على النمو الصحي للطفل.

حيثما كانت الصحة موضع اهتمام، يمكن أن يكون الرفات البشري مَنجمًا من المعلومات. فعلى سبيل المثال، إصابات الإجهاد المتكررة ليست ظاهرة جديدة بأي حال من الأحوال، ويمكن ربط مظاهر العظام المختلفة بحالات الإجهاد الناجمة عن الانحناء أو حمل الأثقال أو طحن الحبوب. ومعظم الأمراض المميتة لا تترك أثرًا على العظام، ولكن إذا حُفظت الأنسجة الرخوة، يمكن أن يكشف علم الأمراض القديمة عن كم هائل من المعلومات. تكاد كل المومياوات المصرية تحتوي على طُفيليات تسبب الزُّحار الأميبي والبِلهارسيا، واحتوت المومياوات في العالم الجديد على بيض الدودة السوطية والدودة المستديرة. كذلك عُثر على طفيليات في البراز البشري المتحجر وبالوعات العصور الوسطى.

ربما تحوم المخاطر حول عالم الآثار غير الحذِر عند التعامل مع الأنسجة الرخوة البشرية؛ فقشور الجروح والفيروسات يمكن أن تظل على قيد الحياة، ولا أحد يعلم كم

شكل ٤-٣: جثة رجل محنطة ومدفونة في مستنقع سبخي بمدينة ليندو في مقاطعة تشيشير.

المدة التي تقبع فيها الميكروبات في حالة خمول. ومن ثَم قد تشكل الكائنات الدقيقة المِعدية مخاطر حقيقية، لا سيما أن مناعتنا ضد الأمراض الغائبة أو النادرة قد انخفضت بالتأكيد. ومن ثَم فإن الميكروبات المميتة هي التفسير المقبول لبعض حالات الوفاة الغامضة (والحمد لله أنها نادرة للغاية) التي تحصد أرواح علماء الآثار، وهذا التفسير أكثر رُجحانًا من أسطورة «لعنة المومياء» المنتشرة. ومن المفارقات أن يصاب عالم آثار بمرض من الماضي، وقد يكون هذا مآل المهتم بعلم الآثار التجريبي!

الأكثر أمانًا هو دراسة الصدمات والأضرار، كتلك التي تعرضت لها الجثث المحفوظة في المستنقعات في شمال غرب أوروبا؛ إذ إن العديد من أصحابها لقي مصرعه بطُرق وحشية؛ مثل الإعدام أو السطو أو القرابين الشعائرية. فرجل تولوند تعرض للشَّنق، ورجل جروبال نُحِر من رقبته، أما رجل ليندو البريطاني — الملقَّب باسم بيت مارش — فكان الأسوأ مصيرًا؛ إذ هُشمت جمجمته مرتين وقد خُنق وقُطعت أوداجه. ومن ثَم فهو إما أنه من المغمورين بين الناس، وإما أن أحدًا عزم على ألا يترك له أي فرصة في الحياة.

أقدم جثة سليمة وصلت إلينا هي جثة رجل الثلج التي عُثر عليها في جبال الألب الإيطالية عام ١٩٩١. واكتشاف هذه الجثة جذب انتباه وسائل الإعلام على مستوى العالم، وسرعان ما نُسجت القصص الرائعة، وربما كان بعضها مختلَقًا. على سبيل المثال، ادَّعت امرأة أنه أبوها الذي اختفى في الجبال، وأنها تعرفت عليه من الصور التي نشرتها الصحافة! ولكن تحليل الكربون المشع حدد عُمر الجثة بأنه ٥٣٠٠ سنة، وبذلك فُنِّد هذا الادعاء. ولكن بمجرد أن استقر الأمر على أن الجثة قديمة بالفعل، يُزعم أن بعض النساء تطوَّعن للحمل بأي حيوانات منوية قد توجد في جثته. والقصة الأعجب أن مجلة للمثليين في النمسا ادعت أنه اكتُشفت حيوانات منوية في قناته الشَّرَجية، ولكن العلماء يتحرجون كثيرًا من نشر هذه «الحقيقة».

في الواقع، الحقائق الثابتة حول رجل الثلج مهمة بالقدر نفسه. فقد مات في أواسط أو أواخر العقد الرابع من عمره. واسودَّت رئتاه بسبب التعرض لحرائق مكشوفة، وتصلبت شرايينه وأوعيته الدموية، ويوجد آثار قضمة صقيع مُزمنة في إحدى أصابع قدميه، وكُسر له ثماني ضلوع، ولكن التأم بعضها، وبعضها الآخر كان في طريق الالتئام بعدما مات. وقد تكون مجموعات الوشوم الموجودة على جسده — معظمها خطوط زرقاء متوازية يبلغ طولها نصف بوصة — علاجية تهدف إلى تخفيف التهاب المفاصل في رقبته وظهره ووركه. ولكن المعلومات الأروع حصلنا عليها من ظفره الوحيد الباقي. فالخطوط العرضية تُبين أنه أصيب بنوبات مرض خطير (إذ انخفض نمو الظفر) قبل موته بأربعة أشهر وثلاثة أشهر وأخيرًا بشهرين. وحقيقة أنه كان عُرضة للإصابة بمرض الشلل الدوري تُظهر أنه كان في حالة ضعف. ومن ثَم، حتى في الجثة الكاملة، فظفر واحد غير ذي أهمية في ظاهره يمكن أن يُمدنا بقدر كبير من المعلومات عن حياة صاحبه؛ وهي استعارة مناسبة لعلم الآثار كليًّا. لكن رجل الثلج لا يزال يُتحفنا بالمفاجآت؛ فبعد عقد تقريبًا من العثور عليه، كشفت الأشعة المقطعية على كتفه اليسرى عن رأس سهم صغير من الصوان قطع شريانًا وتسبب في نزيف حاد أدى إلى وفاته. وكشف فحص أحدث عن جرح عميق في عينه اليمنى؛ وهذا الجرح ناجم إما عن سقوط وإما عن ضربة في الرأس، ما تسبب في نزيف حاد، وربما ساهم هو الآخر في موته. هذه الاكتشافات توضيح للقاعدة الأثرية الأساسية، وهي أن التحليلات الجديدة يمكن أن تؤدي في كثير من الأحيان إلى أدلة جديدة مذهلة. وينبغي للمرء ألا يَقنَع بالسيناريو الذي بين يديه؛ فالعلماء الحقيقيون لا يكُفُّون عن البحث والعودة إلى استنتاجاتهم الأولى للتحقق منها مرة أخرى. فلا تركن إلى أمجادك، فالأمجاد سرعان ما تذبل وتموت.

الفصل الخامس

كيف كان تفكير الناس قديمًا؟

إذا كان فهم تفاصيل الحياة — التكنولوجيا وكسب لقمة العيش وغير ذلك — مسألة صعبة، فالأصعب منها الدخول إلى عقول الناس ومحاولة الحصول على فكرة، ولو بسيطة، عما يؤمنون به وعن طريقة تفكيرهم. فإذا كانت قدراتك لا تُسعفك لأن تقرأ أفكار زوجتك (والأفضل ألا تفعل!) بعد سنوات كثيرة من الزواج، فما بالك بالصعوبة في إعادة بناء ما يُطلق عليه — في المصطلحات الرهيبة — «طرق التفكير في ثقافات ما قبل التاريخ».

وهنا، نركن إلى ذوي الشجاعة ممن يطمحون إلى «علم آثار العقل» — وهم علماء الآثار الإدراكيون — إذ إنهم يرفضون فكرة أن الأفكار والمعتقدات والعلاقات الاجتماعية القديمة قد طُمِست إلى الأبد، ويعتقدون أن بإمكانهم إحياءها من خلال المنطق الذي يطبَّق على البقايا الفنِّية والبقايا المادية الأخرى التي يعتقدون أنها مرتبطة بالدين والطقوس وما إلى ذلك.

في الوقت الحالي، يسعى العديد من العلماء جاهدين إلى التوصل إلى إجراءات صريحة من أجل تحليل الأنماط الإدراكية لدى المجتمعات الأولى، لا سيما التي لم تَترُك نصوصًا خطية تساعدهم. وقد توافر العديد من النُّهُج المشجعة لهذه المهمة التي تبدو مستحيلة. على سبيل المثال، بإمكان المرء أن يحقق في الطرق التي وصف بها الناس عالمهم وقاسوه، وكيف خططوا للمعالم الأثرية والمدن وبنَوها، وما هي المواد التي حظِيت بقيمة عظيمة عندهم واعتبروها رموزًا للثروة والقوة. وعلى وجه الخصوص، بإمكان المرء أن يدرس البقايا المادية الخاصة بالدِّين.

ثَمة شيء من الحقيقة في قولهم: إن الدين في الأساس هو محاولة البشر للتواصل مع قوى الطبيعة، وقد كُرس قدر كبير من الجهد في الماضي من أجل هذا المسعى. وعلى الرغم من النزوع المعروف لدى علم الآثار بأن يطلق لفظة «طقس ديني» على أي شيء

يبدو غريبًا، فإنه يظل صحيحًا — كما نعرف من الدراسات الحديثة الخاصة بالشعوب البدائية — أن الأنشطة الدينية غالبًا ما يكون لها أهمية عظيمة في الحياة؛ وبما أنه لا يوجد حد فاصل حقيقي بين الشيء المقدس والشيء العلماني، فقد يبدو في النهاية أن قدرًا كبيرًا من الحياة مكرَّس من أجل الدين.

في السنوات الأخيرة، تبين أن أدلة التفكير تعود إلى زمن أبعد من المتصوَّر. على سبيل المثال، ساد اعتقاد لفترة طويلة أن الدفن المتعمَّد لدى البشر بدأ مع إنسان النياندرتال في أوراسيا منذ مدة تتراوح بين ١٠٠ ألف إلى ٤٠ ألف سنة؛ وهناك العديد من الحالات المعروفة، وإحداها حالة الدفن الشهيرة في كهف شاندر بالعراق؛ إذ يبدو أن الجثة وُضعت معها الزهور (وقد عُرف ذلك من حبوب اللقاح التي وُجدت مع العظام). لكن الاكتشافات التي عُثر عليها في حفرة العظام بأتابويركا (انظر الصورة ١٣) دليل قوي على تنفيذ نوع من الطقوس الجنائزية منذ ما يزيد على ٦٠٠ ألف سنة؛ إذ إن مجموعات العظام قد جُلبت عمدًا وأودعت في الحفرة؛ فهذا الموقع ليس موقع حياة (إذ لم توجد أدوات أو بقايا أخرى تدل على نفايات منزلية في المكان)، ولم تُجلب الجثث إلى الحفرة بفعل حيوانات ضارية (إذ لم توجد آثار أسنان على العظام وكل أجزاء الجسم موجودة ولا توجد بقايا من حيوانات مفترسة أخرى). وفي عام ١٩٩٨، عُثر على بلطةٍ يدوية أصلية ورائعة من الكوارتزيت الأحمر يطلق عليها «إكسكاليبور» بين العظام، والأرجح أنها نوع من القرابين. إذَن في هذه الحالة، يطمئن المرء، من محتوى الاكتشافات وسياقها فحسب، أنه كان يحدث نوع من الطقوس الدينية البدائية.

ينطبق الأمر نفسه على «الفن». الفن مفهوم معروف عنه أنه صعب الفهم، ولا يزال الجدال محتدمًا حول صياغة تعريفه. ربما أبسط نهج لفهمه هو التمسك بتعريف عمره قرون وهو: أن «الفن عمل يُبدعه الإنسان مقارنةً بما تبدعه الطبيعة»؛ ومن ثَم نتجنب أي تمايز في تنوع الصور أو المحتوى أو القصد. وكما هي الحال مع الدين، فإنه يصعب كثيرًا في العديد من المجتمعات «البدائية» التفريق بين ما يمكن أن نعتبره فنًّا وما يمكن ألا نعتبره فنًّا؛ فهذه الفروق لا تعني شيئًا لمن يرون كل ضروب «الفن» بأنها وظيفية، سواء أكان بطريقة مباشرة، باعتبار الفن أداة يمكن استخدامها، أو بطريقة غير مباشرة، باعتباره طريقة للتواصل مع الأرواح أو الآلهة أو قوى الطبيعة أو أي شيء آخر. كل شيء يحمل أهمية ومعنًى وهدفًا، ولا تستطيع العديد من الثقافات ببساطة استيعابَ مفهومنا عن «الفن» باعتباره شيئًا منفصلًا أو خاصًّا أو غير وظيفي.

على مدار سنوات عديدة، كان يُرى أن الفن بدأ مع الإنسان المتحضر في أوروبا؛ أي مع أول عمل فني منقول والرسومات داخل الكهوف من أواخر العصر الجليدي. ولكن هذه الفكرة قد كُشف زيفها. ففي الوقت الحالي، يتساوى «الفن» من حيث القِدم بين كل القارات؛ إذ يوجد في أستراليا أقدم نقوش على الصخور على مستوى العالم (إذ يبلغ عمرها أكثر من ٤٠ ألف سنة إذا صحَّ تأريخ مسرِّع قياس الطيف الكتلي)، والأهم من ذلك أنه بات واضحًا الآن أن «الفن» موجود قبل ظهور الإنسان المتحضر بكثير. عُرف هذا الأمر منذ عقود، حيث اكتُشف مدفنٌ لإنسان النياندرتال في جنوب غرب فرنسا وبه بلاطة حجرية عليها سلسلة من «النقوش» الصغيرة (تجاويف دائرية صغيرة) ذات تنظيم دقيق. ولكن ما برحت المؤسسات الأثرية تنبذ هذا الاكتشاف وتعتبره زائفًا، ولم «يحدث سوى مرة واحدة»، ولا يرتقي إلى عجائب فن الكهوف التي اكتُشفت بعد ذلك، مثل كهف لاسكو أو كهف ألتاميرا.

شكل ٥-١

لكن الآن لم تتزايد أعداد الأمثلة على مختلف «الأعمال الفنية» البسيطة التي أبدعها إنسان النياندرتال فحسب، بل أصبح واضحًا أنه استُخدمت أدوات التزيين؛ وهذا يشهد عليه الصَّدَف الموجود في مواقع إنسان النياندرتال بإسبانيا. بل إن هناك أعمالًا فنية أقدم؛ على سبيل المثال، تمخَّض كهف بلومبوس بجنوب أفريقيا مؤخرًا عن بقايا ورشة لمعالجة المغرة يبلغ عمرها ١٠٠ ألف سنة، وكانت فيها الأدوات التي استُخدمت لإنتاج مركَّب غني بالمغرة، وتخزينه في أوعية صدفية. والمثال الأروع على الأعمال الفنية حصاة صغيرة من صخرة بركانية، وقد عُثر عليها في بركة رام — وهي موقع مكشوف على هضبة الجولان بإسرائيل — في ثمانينيات القرن العشرين. شكلها الطبيعي يشبه امرأة، ولكن توجد تجاويف حول «الرقبة» وتحت «الذراعين»، غير أنه لا يُعرف هل هذه الخطوط طبيعية هي الأخرى أم من صنع إنسان. أثبت التحليل المجهري الذي أجراه الباحث الأمريكي ألكسندر مارشاك، وبما لا يدع مجالًا للشك، أن هذه الخطوط من صنع الإنسان، ومن ثَم فإن هذه الحصاة لا شك أنها «تمثال صغير»؛ أي إنها عمل فني يبلغ عمره ٢٣٠ ألف سنة على الأقل، وربما يزيد. ومن ثَم يصبح لدينا دليل واضح — مرة أخرى — على وجود نشاط إدراكي؛ فقد تعرف أحدهم على الشبه الذي بين الحصاة والمرأة، ثم عمد إلى تحسينه.

حتى وإن ركنَّا إلى الرأي السائد بأن الفن الحقيقي بدأ مع الإنسان المتحضر في نهاية العصر الجليدي، فسيظل صحيحًا أن فن ما قبل التاريخ — لا سيما «الفن الصَّخري» — يشكل ٩٩ في المائة من تاريخ الفن. ومن المفارقات أن معظم الكتب التي تتحدث عن تاريخ الفن تبدأ بصورة ملتقَطة من فن الكهوف (وعادةً ما تكون من كهف لاسكو أو كهف ألتاميرا، وكلاهما لا يمثل تاريخ الفن كليًّا) أو بصورة تمثال صغير لامرأة (وعادةً ما تكون امرأة سمينة، وهي لا تمثل تاريخ الفن كليًّا على حدٍّ سواء) قبل الانتقال إلى الحديث عن أشهر المناطق، وهي أرض مصر وأرض الإغريق. وعلى الرغم من ذلك، فإن كهف لاسكو — الذي يبلغ عمره قرابة ١٧ ألف سنة — يقع عند منتصف مسيرة تاريخ الفن؛ وبالطبع في ضوء التمثال الصغير الذي عُثر عليه في بركة رام، فإنه يسعنا القول: إن كهف لاسكو قد بدأ في «مرحلة متأخرة» من تاريخ الفن!

لا يتسم فن ما قبل التاريخ باتساع النطاق الزمني فحسب، بل بطيفٍ واسع من الأنواع والموضوعات؛ إذ يمتد من النقوش على العظام وحتى الرسومات الرائعة المتعددة الألوان، وبدايةً من علامات الأصابع البسيطة على الصلصال وحتى المنحوتات المعقَّدة الثلاثية الأبعاد. ومن ثَم فبمقدور المرء أن يجد كل شيء وأي شيء يتمنَّاه في هذا الفن؛

وحتى هؤلاء الأفَّاكون وقراؤهم الساذجون — الذين ادعوا في سبعينيات القرن العشرين أنه توجد أدلة على وجود كائنات فضائية أو رواد فضاء قدماء في السجلات الأثرية — وجدوا صورًا في الفن الصخري تبدو (على الأقل في نظرهم) مثل رجال الفضاء!

مما نعرفه عن الفن «البدائي» اليوم، يتجلى لنا أن فنَّ ما قبل التاريخ لا بد أنه خدم عدة أغراض؛ ومنها: الألعاب والأساطير والروايات والرسم على الجدران والرسائل وأساطير الخلق والدِّين. وليس بالضرورة أن تنبثق كل هذه الأغراض عن الجدية وعدم الهَزل بحيث تُبرز الرعب الكامن في الظواهر الخارقة للطبيعة، بل جزء كبير منها ينبثق عن مظاهر الاحتفال بالحياة، بحيث تعكس المرح والبهجة. فقد نُفذت بعض هذه الأعمال في أماكن مكشوفة يراها الجميع، وبعضها في أماكن ذات خصوصية شديدة؛ إذ إنها تختفي في الخبايا أو الكهوف العميقة. وعلى الرغم من هذا التنوع الجَلِي، فإن كثيرًا ممن يدرسون الفن الصخري — أو حتى فن العصر الجليدي — لديهم ميول موروثة بطرح تفسيرات شمولية ومفرطة التبسيط. في الواقع، لا يخلو جانب في علم الآثار من هذا الميل الموروث، وربما كان خطأً متأصلًا في السلك الأكاديمي؛ بحيث إنه بمجرد عثور أحد ما على فكرة قيِّمة في ظاهرها (وعادةً ما تكون مستعارةً من شخص آخر، لكن يحسُن أن يكون من تخصص آخر)، تتملكه رغبة جامحة في تطبيقه على كل شيء من دون استثناء، وفي تطويع كل جانب من جوانب ظاهرة متنوعة بامتياز إلى تفسيرٍ واحد شمولي.

عادةً ما تُبرز التفسيرات المختارة الأفكارَ الراسخة والتحيزات المعاصرة؛ ففي البداية، كان يُنظر إلى فن ما قبل التاريخ على أنه رسم عبثي أو أنه نشاط ترفيهي، بمعنى «الفن من أجل الفن وكفى». ثم في مطلع القرن، بدأت تظهر روايات عما فعلته الشعوب «البدائية» المعاصرة، وقد طُبقت بعض الأفكار التبسيطية على فن ما قبل التاريخ من دون أي نقد؛ وأبرز هذه الأفكار أن هذا الفن خدم أغراضًا سِحرية؛ بحيث يساعد في عمليات الصيد أو الخصوبة. وفي خمسينيات القرن العشرين، قادت الحركة البنيوية في فرنسا إلى أفكار جديدة حول توافر عنصر البنية المحددة والمتكررة في فن الكهوف؛ وعلى الجانب الآخر، شهدت فترة «الستينيات الحماسية» مقترَحًا بأن الحيوانات المرسومة على الكهوف كانت رموزًا جنسية، كذلك أدى عصر الفضاء إلى التركيز على الرموز القمرية المحتملة وغيرها من عمليات الرصد الفلكية الملموسة في بعض الفنون والآثار التي تعود إلى حقبة ما قبل التاريخ. أما في عصر الكمبيوتر، فلا ريب أنه أدى إلى رؤية الفن الصخري وكأنه سلسلة من الأقراص المدمجة أو «الأقراص المرنة» الضخمة؛ إذ تسجَّل عليها المعلومات

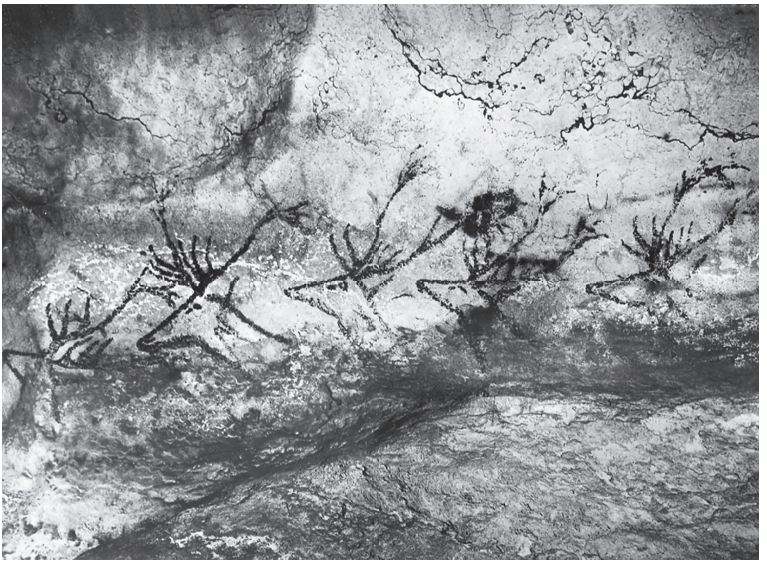

شكل ٥-٢: رسم عُثر عليه في كهف لاسكو، فرنسا.

بهدف تخزينها واسترجاعها سريعًا. ويبدو أن أحدث النظريات — التي تقول إن الفن الصخري يتكون إلى حدٍّ كبير من صور النشوة — كانت إرثًا مباشرًا لثقافة المخدرات التي شاعت في أواخر ستينيات وسبعينيات القرن العشرين؛ إذ اتَّسمت هذه الفترة بالميل إلى النزعة الصوفية والشامانية والمهلوسات وتغير حالات الوعي وما إلى ذلك، وقد بلغت ذروتها في المؤلفات الهائلة التي تتحدث عن «العصر الجديد».

بغضِّ النظر عن هذه التفسيرات، وربما جميعها يحمل قدرًا من الصحة، لا تتغير حقيقة أن الفنان هو الوحيد القادر على أن يقول ما الذي يعبر عنه العمل الفني وما الغرض من ورائه. ولا يسعُنا التيقُّن من شيء. ففي تجربة شهيرة، طلب عالم أسترالي من بعض السكان الأصليين أن يتعرفوا على بعض الحيوانات في لوحة فنية على الصخر، وقد اختلفت تسمياتهم عمَّا توصلت إليه مبادئ علم الحيوان في البلدان الغربية اختلافًا كبيرًا؛ فمن بين ٢٢ صورة، أخطأ علماء الغرب في نحو ١٥ صورة، ولم يصيبوا على ما يبدو إلا في سبع صور! ولكن لأن من عاشوا في عصور ما قبل التاريخ لم يعودوا بيننا، ومن ثَم لا

يمكننا الوصول إلى المعنى الحقيقي من وراء العمل الفني، فلا يسعُنا إلا محاولة تقييم ما يصوره العمل الفني، على حد ما نرى، ومحاولة تقييم أهميته.

لا شك أن الفن الصخري استُخدم في بعض العصور من أجل تسجيل المعلومات ونقلها. تصبح الأمور أسهل بكثير على عالم الآثار الإدراكي حين يتعلق الأمر بالنصوص الحقيقية. ولكن عليه أولًا أن يفك رموز هذه النصوص. وهذه مهارة متخصِّصة للغاية وتحتاج إلى نوع خاص من العقل التحليلي. ولا يخلو المجال من الرواد البارزين، مثل شامبليون وهو أول من فك رموز اللغة الهيروغليفية المصرية القديمة (وقد ساعده على ذلك اكتشاف حجر رشيد الذي يحمل نصوصًا متطابقة باللغتين المصرية القديمة واليونانية). وفي القرن العشرين، ظهرت شخصية كبيرة — حظِيت بكل التبجيل لأن صاحبها تُوفي في أوج شهرته مثل بعض نجوم البوب — وهو مايكل فينتريس، وكان مهندسًا معماريًّا، أعلن في سنة ١٩٥٢ أنه فك رموز النظام الخطي «ب»، وهو نص يعود إلى الحضارات الأولى التي قامت عند بحر إيجة، كما أنه شكل قديم من اللغة اليونانية (وعلى الرغم من وجود النص في جزيرة كريت، فإنه لا صحة لروايةِ أن أحد الألواح كُتب عليه: «إنه شيء صغير ولكنه من الحضارة المينوسية»). لم يقابَل اكتشافه — مثل معظم الرواد — بالاحتفاء، بل بصيحات الاستنكار الساخطة من زملائه في المجال. وهذا شائع في كل شُعَب علم الآثار؛ وقد حدث الأمر نفسه حين اكتُشفت مكتبة كاملة من الألواح المكتوبة بالنظام الخطي «ب» مدفونة في اليونان، وقد تطابقت ترجماتها تطابقًا تامًّا مع ما قاله فينتريس، ولم يكن أمام الخبراء خيار سوى أن اتهموا المنقِّب وفينتريس بالتزوير!

لا تتخيل أن فك الرموز فن آخذ في الأُفول، بل إن شمسه لا تزال مشرقة وساطعة. ولم تُفهم نقوش المايا المعقدة في أمريكا الوسطى فهمًا صحيحًا إلا في الآونة الأخيرة بعد قرن من الجهود البحثية التراكمية، وأما نقوش «رونجو رونجو» في جزيرة الفصح — المكتوبة على ٢٥ لوحًا خشبيًّا فقط — فقد فُكت رموزها، على الأقل من حيث بنيتها ومحتواها العام. لكن لا يزال كمٌّ هائل من العمل بحاجة إلى الإنجاز، ولم تُفك حتى الآن رموز النظام الخطي «أ» (من حضارات بحر إيجة)، ولا رموز النقوش السندية (التي استخدمتها الهند القديمة وباكستان)، ولا تزال هذه النقوش تمثل تحديًا أمام المتحمسين الذين يريدون تحدي عقولهم.

بمجرد التمكن من قراءة هذه النصوص، فلا شك أنها ستوفر قدرًا عظيمًا من المعلومات القيمة عن الأنماط الإدراكية في الماضي، مثل النقوش من المواقع الكلاسيكية

أو الكتابات الأولى التي خطَّها المستعمرون، وغير ذلك. ولكن كما هي الحال مع التاريخ بوجه عام، ينبغي أن تُرى الكلمة المكتوبة دومًا على أنها مُكملة لعلم الآثار وليست بديلًا عنه؛ وتصح هذه النظرة للمجتمعات القديمة على وجه الخصوص؛ إذ إنهم لم يستخدموا الكتابة إلا لأغراض محدودة جدًّا، وكانت معرفة القراءة والكتابة مزيةً تختص بها الصفوة الأقلية. لكن من ناحية أخرى، انتشرت معرفة القراءة والكتابة في اليونان الكلاسيكية، واستُخدمت الكتابة في كل مناحي الحياة تقريبًا؛ ومن ثَم فإن النصوص يمكن أن توفر أفكارًا هائلة، مثل الأفكار الخاصة بالتعرف على الآلهة والأساطير في الأدب (ومن دون الأدب الكلاسيكي، فإن معظم الأعمال في الأدب الإغريقي والروماني لن يعني لنا الكثير)، ولكن كما هي الحال دومًا، لا تخلو النصوص من التحيزات، كما أنها تفتقر إلى الكمال.

خُصِّص جزء كامل من علم الآثار الإدراكي لدراسة علم الفلك الأثري، ويُقصد بها دراسة المعارف القديمة الخاصة بالظواهر السماوية. وكما ذكرنا من قبل، ربما توجد نقوش قمَرية من العصر الجليدي الأخير (لا شك أن أطوار القمر كانت الطريقة الرئيسية التي تقيس بها الشعوب القديمة مرور الزمن)، ولكن الأمر وصل إلى قمة تألُّقه في أواخر حقبة ما قبل التاريخ مع ظاهرة موازاة المعالم الأثرية لأحداثٍ فلكية مهمة، مثل شروق شمس منتصف الشتاء أو شمس منتصف الصيف. وبدايةً من المعالم الأثرية الصخرية لحقبة ما قبل التاريخ في غرب أوروبا وحتى الأبنية الضخمة في حضارات أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية، كانت هناك حالات موازاة دقيقة ما يبين المعرفة العميقة بحركة الأجرام السماوية وبالأهمية التي تنطوي عليها.

بالمناسبة، كلمة Megalith لفظة يونانية، وتعني بالعربية «العمود الحجري الكبير» (وهي على عكس كلمة Microlith، وهي مصطلح آخر بالغ الأهمية في علم الآثار؛ إذ يُستخدم لوصف الأدوات الحجرية بالغة الصغر). وأبسط شكل من أشكال العمود الحجري الكبير هو الحجر الفردي القائم — مثل الحجر الذي يحمله أوبليكس في قصة «أستريكس» المصورة — في فرنسا وغيرها، والمصطلح الصحيح الذي يطلق على هذه الحجارة هو menhir ويعني «الشاخص الحجري». في أوروبا، هذه الشواخص الحجرية مرصوصة في شكل صفوف ومجموعات أو «خطوط مستقيمة»، ولكن في بريطانيا على وجه التحديد، فإنها تتخذ أشكالًا دائرية أو بيضاوية. يُعتقد أن هذه الشواخص تُوازيها ظواهر فلكية، ولكن لا يمكن التيقُّن من هذا الاعتقاد دومًا؛ إذ إن السماء مليئة بهذه الظواهر، لدرجة أنه يوجد احتمال كبير أن تتوازى الحجارة المرصوصة بطريقة منتظمة

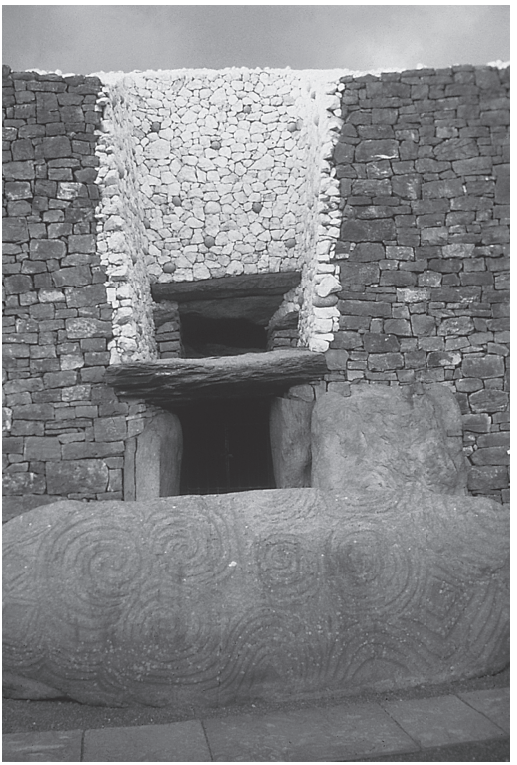

شكل ٥-٣: المدخل إلى نيو جرانج، أيرلندا. لاحظ «النافذة» فوق عتبة الباب إذ تنفذ منها أشعة الشمس ساعة الصبح حين يحدث الانقلاب الشتوي.

أو غير منتظمة مع ظاهرة مهمة عن طريق الصدفة البحتة. لكن في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، أبهر عددٌ من علماء الفلك المتخصصين العالَم الأثري الشاسع بحسابات معقَّدة وأدوات صُممت كي تثبت أن الناس في حقبة ما قبل التاريخ كانت لديهم معرفة قوية؛ لدرجة أنهم تمكنوا من بناء حواسيب صخرية، ومن الأمثلة على ذلك معلم ستونهنج؛ إذ كان أداة ضخمة ودقيقة للتنبؤ بحالات الكسوف والخسوف!

بمجرد أن فُضح هذا الشطط، تُرك المجال مفتوحًا لعقولٍ أكثر منطقية كرَّست قدرًا كبيرًا من الوقت والجهد — في مواجهة الشكوك الأولية الهائلة التي تحوَّلت تدريجيًّا إلى

قبول على مضض — كي تُثبت أن العديد من الدوائر الحجرية في أوروبا تتوازى توازيًا تقريبيًّا، ولكنه مقصود، مع الظواهر الفلكية لأغراض التقويم على الأرجح، وبذلك يعرف المزارعون مواسم الزراعة والحصاد (أم هل يُفترض بالمرء أن يتمكن من معرفة هذه المواسم من دون تقويمات حجرية ضخمة؟).

من أبرز المؤيدين لهذا الرأي المهندس الاسكتلندي ألكسندر توم؛ إذ إنه وضع خططًا دقيقة للدوائر البريطانية، واعتقد أنه استُخدمت وحدة قياس قياسية في تخطيط هذه الدوائر، وقد أسماها «الياردة الحجرية»، وهي تساوي ٢.٧٢ قدم. وعلى الرغم من صعوبة إجراء قياسات دقيقة في هذه المعالم الأثرية — فغالبًا ما تكون الحجارة خشنة وغير منتظمة الشكل؛ ومن ثَم من أين لك أن تعرف المكان الذي ينبغي أن تضع فيه طرف شريط القياس؟ — فقد صار هناك قبول عام أنه ربما استُخدمت وحدة قياس قياسية. ولكن بعيدًا عن اللجوء إلى الرياضيات المعقدة، فإن التفسير الأرجح أن بناة المعلم الأثري استخدموا الخطوة البشرية لوضع الحجارة في مكانها.

انقسم الناس في العصور الأولى إلى طبقات كما هي الحال اليوم، ويتجلَّى هذا الانقسام في رموز القوة التي تتفاوت بدايةً من التماثيل الضخمة للحكام (مثل جبل راشمور) وحتى الملابس أو الزينة الغالية الثمن (شعارات المصمِّمين، الأقراط الماسية)، وكل هذه الأشياء ليس لها فائدة جوهرية غير أن الصفوة تعتبرها أشياء قيِّمة. وعادةً ما كانت المواد النادرة والثمينة تُعطى على سبيل الهبة، ومثلها المقتنيات المزخرفة ذات الصنعة الجميلة التي لا تُستخدم في أغراضها الظاهرة (مثل الفئوس السهلة التفتيت، والدروع المصنوعة من الألواح البرونزية، ورءوس السهام الحجرية الرقيقة). كذلك المدافن التي تضم مقتنيات فخمة يقتضي المنطق أنها تخصُّ الأثرياء أو أصحاب النفوذ، وهذا يؤكد طبقيةَ المجتمع. وبطبيعة الحال، ينتهي بنا المقام إلى المقابر المَهيبة والفخمة للحكام المعروفين في كل الحضارات الكبرى — بدايةً من الملك أور والملك توت، وحتى جيش الطين الصيني وملوك سيبان في بيرو — والفن والعمارة المهيبة المرتبطة بالنخبة في هذه الثقافات وفي غيرها. لكن لا يسع المرء أن يتيقن بنسبة مائة في المائة بشأن أي شيء في الماضي، مثل وضع معادلة بسيطة تربط الثروة بالمكانة (ففي نهاية الأمر، ملوك المملكة العربية السعودية الفاحشو الثراء في أيامنا هذه يُدفنون ولا يوضع معهم شيء)، ولكن العقل بوجه عام يفترض أن القبور الفخمة يسكنها أناس كانوا مرفَّهين في حياتهم أيضًا. لكن وجب التنويه إلى أن وضع المقتنيات مع الميت لا يدل بالضرورة على أي إيمان بالحياة

الآخرة؛ ففي بعض الثقافات، كانوا يعتقدون أن استخدام مقتنيات الميت تجلب الحظ السيئ؛ ولذا كانوا يدفنونها معه. لكن وجود الطعام في المقبرة دليل دامغ على توقُّع أن ينهض الميت ويتناول وجبة خفيفة بعد موته في العالم الآخر، ومن ثَم فهذه دلالة على شيء من معتقَدٍ ديني. وينطبق الأمر نفسه إذا وُجد المرءُ الميتُ يرافقه خدمه بعد نحرهم عمدًا كي يستمروا في وظيفتهم إلى الأبد في الحياة الآخرة؛ وهذه صفقة عِفنة في حق الأيدي العاملة.

كثيرًا ما اتُّخذ الدين في هذه المجتمعات ليكون وسيلة للحفاظ على هذه الطبقية، ولكن التعرف على وجوده في المادة الأثرية ليس بالمهمة السهلة، لا سيما إذا كان داخلًا في الأنشطة اليومية. لكن يوجد عدد من القرائن الواضحة التي ينبغي البحث عنها، مثل الأبنية الخاصة المكرَّسة للوظائف المقدسة، والتركيبات الخاصة، مثل المذابح، وأدوات الطقوس، مثل النواقيس والأجراس والمصابيح وما إلى ذلك. وغالبًا ما تدخل المياه في هذه الطقوس؛ ولذا قد تكون المسابح أو الأحواض ذات أهمية؛ وكذلك ربما نُحرت القرابين من الحيوانات والبشر. يمكن أن تكون صور العبادة ورموزها واضحة، وكذلك الأمر مع صور أشخاص يراها (الناظر منَّا) وكأنهم يؤدون عبادة؛ وعلى الجانب الآخر، يمكن العثور على نذور من طعام أو قرابين (وغالبًا ما تكون مكسورة أو مخفية). وفي النهاية، غالبًا ما ترتبط الأبنية أو المراكز الدينية المهمة بالثروة الضخمة في المحتويات والزخارف.

لا تنطوي فرادى هذه العناصر على قدر كبير من المعلومات، ولكن إذا عُثر على عدد منها مجتمعةً وفي سياق أثري واحد، فحينها يقف عالم الآثار الإدراكي على أرض صلبة بالقدر اللازم لتفسير الأدلة على أنها استُخدمت في أداء العبادات. ينطبق الأمر نفسه على المجموعات الكاملة من المقتنيات الثرية التي يُعثر عليها في ظروف خاصة، مثل أسلحة العصر الحديدي الملقاة في نهر التايمز، أو المئونة الضخمة من الأدوات المعدنية في المستنقعات الاسكندنافية، أو الكميات الهائلة من المقتنيات الثرية من الناحية الرمزية (والأشخاص) التي رماها شعب المايا في الحفرة (البئر) في تشيتشن إيتزا. والأرجح أن كل هذه المواد قد آلت إلى المياه نتيجة ممارسات الطقوس، وليس بسبب عدم الاكتراث لها، على الرغم من احتمالية هذا الرأي.

وعلى كلٍّ، بإمكان علم الآثار الإدراكي إجراء بعض التقييمات للعقول التي غابت عن دنيانا. لكن في مجالات أخرى، يتطلب الأمر كثيرًا من التفاؤل، ويحتاج إلى أن ينتصر العقل على المادة. وفي أفضل الأحوال، يقدم علم الآثار الإدراكي افتراضاتٍ محفزة قائمة

شكل ٥-٤

على معلومات قديمة أو حديثة — لا سيما الروايات التي يرويها الغزاة أو المبشرون والمستعمرون الأوائل — أو على استنتاجات من البقايا المادية نفسها. أما في أسوأ الحالات، فإنه يمتلئ بالأفكار الحالمة، لا سيما حين يتعلق الأمر بمحاولات فك رموز فن ما قبل التاريخ؛ فإنه يُنتج «قصصًا خالية من المعنى» وخيالًا محضًا لمحاولة تفسير البقايا المادية، ومن بعدها ينعت المؤلفون أنفسهم بأنهم روائيون محبَطون.

الفصل السادس

الاستيطان وبناء المجتمعات

ما برح البشر يسكنون صنوفًا متنوعة من المواقع، بدايةً من العيش بين أكوام النُّفايات وحتى العيش في القصور، ومن الجوانب المهمة في علم الآثار أن يُحدد نوع المستوطنة التي سكنها الإنسان. وما إن تُكتشف هذه المعلومة الأساسية، حتى ينتقل المرء إلى أسئلة أكثر تعقيدًا تتضمن نوع المجتمع الذي عاش فيه الإنسان.

لكن ما الذي تعنيه كلمة «موقع» من وجهة نظر علماء الآثار؟ من حيث المبدأ، هي تعني أي بقعة على وجه الأرض تحوي آثارًا يمكن اكتشافها وتدل على ممارسة نشاطٍ بشري، أو تدل على ما يعتقده عالم الآثار نشاطًا بشريًّا. لذا، إن عثرت على أدوات صوانية في حقل محروث أو فئوس حجرية في الصحراء، فتلقائيًّا ستُعتبر هذه البقعة موقعًا أثريًّا. بالطبع ليست كل المواقع أماكن للسُّكنى؛ فعلى سبيل المثال، ربما تكون أماكن للذبح أو محاجر للمواد الخام أو مقابر أو معالم أثرية أو مواقع للفن الصخري أو أماكن مقدسة كانت تُقام فيها الشعائر الدينية بين الفينة والأخرى. أما المساكن، حتى التي سُكنت لفترات قصيرة، فعادةً ما تحوي مجموعةً مميزة من الآثار؛ ولا تشتمل هذه المجموعة على المصنوعات اليدوية وحدها، بل تشتمل على «سمات» (أي العناصر غير المنقولة) وهياكل ومجموعة من البقايا العضوية والبيئية. وعلى وجه الخصوص، عادةً ما يتوقع عالم الآثار العثور على موقِد، فلا يخلو منزل من موقد على أي حال.

تتراوح مواقع الاستيطان بدايةً من الأماكن التي تتناثر فيها المصنوعات اليدوية الصغيرة، ما يدل على سكنى الموقع لمدة قصيرة تبلغ بضع ساعات، وحتى «التلال» الهائلة في الشرق الأدنى، حيث تراكمت البقايا بعضها فوق بعض بسبب تعاقب بناء المدن في الموقع الواحد وامتدت على مدار آلاف السنين. ولطرح الأسئلة الصحيحة الخاصة بالمادة الأثرية واستنباط وسائل الإجابة عليها، يجب تقييم حجم المجتمع أو نطاقه، وكيف كان

تنظيمه الداخلي. وأيضًا، لا جدوى من البحث عن علامات تدل على تنظيمٍ مركزي معقَّد في مواقع الصيد وجمع الثمار في العصور الأولى! لذا، فإن أول خطوة تتطلب دراسة فرادى المواقع، ودراسة العلاقة بين بعضها وبعض؛ أي «نمط الاستيطان».

يحب علماء الآثار أن يقسموا البيانات إلى فئات مختلفة من أجل التبسيط ومن أجل تطويع الكم الهائل من المعلومات. وفيما يتعلق بالتسلسل الزمني (الفصل الثاني)، فإنهم يفضلون تقسيمه إلى أنظمة ثلاثية المراحل مثل «الأول/الأوسط/المتأخر» أو «الأدنى/الأوسط/الأعلى». أما فيما يتعلق بالمجتمعات، فعادةً ما يُستخدم التصنيف رباعي الفئات، وكل فئة ترتبط بأنواع معينة من المواقع وأنماط الاستيطان. وبالنسبة إلى كل المصطلحات الأثرية — مثل الفأس اليدوية أو العصر الحجري القديم الأعلى، أو إنسان النياندرتال، أو المزهرية الإغريقية، أو حضارة القدور الجرسية، أو أي مصطلح آخر — فإن الأسماء وصفية وافتراضية واصطناعية بالكامل، ولا ترتكز على الواقع إلا بقدر ضئيل، ولكنها بمثابة اختزالٍ ملائم حتى يعرف علماء الآثار إلى أي فترة أو نوع من الاكتشافات الأثرية أو نمط من المجتمعات تشير أنت.

الفئات الأربعة العامة هي: العصابات، والمجتمعات القطاعية (وتُسمى أحيانًا «القبائل»)، والمشيخات، والدول. وكما هي الحال مع تقسيمات التسلسل الزمني في علم الآثار، فإن هذه الفئات ليست سوى نقاط مُنتقاة من سلسلة متَّصلة، وغالبًا ما يصعب تعيين ثقافة لفئة دون التي تليها؛ إذ إن بعض السمات تظهر قبل غيرها. مثلما لم يقل أحد من العصر الجليدي مثلًا: «لقد سئمت العصر الحجري القديم الأوسط، أمَا آن الأوان كي يبدأ العصر الحجري القديم الأعلى؟» فإنه لا يُتصور أن يعلن مزارع من العصور الأولى لجيرانه قائلًا: «أود أن أنذركم بأنني بدايةً من الشهر التالي سأتقلَّد سلطات الحاكم وسأحول مجتمعنا القطاعي الصغير الهادئ إلى مجتمع حديث، بحيث يصبح مشيخةً تمضي قُدمًا لتكون في طليعة التقدم.»

(١) تشير فئة العصابات إلى مجتمعات صغيرة تقتات على صيد الحيوانات وجمع الثمار وصيد الأسماك، وعادةً ما يكون عددهم أقل من ١٠٠ فرد. وغالبًا ما ينتقلون حسب المواسم، وقوام معيشتهم الأساسي أو الحصري الموارد الطبيعية، ولذا عادةً ما تكون مواقعهم معسكراتٍ موسمية، ويلحق بها مناطق أصغر وأكثر تخصصًا للعمل، مثل الذبح والنحر، أو مواقع العمل لصنع الأدوات التي غالبًا ما تكون من الحجارة.

وبناءً على الظروف المحيطة بهم، فإنهم يسكنون إما داخل الكهوف وإما الملاجئ الصخرية، أو يبنون ملاجئ مؤقتة من المواد العضوية، مثل الخشب أو العظام أو الجلود. وبوجهٍ عام، فإن معسكرات القواعد أهم من المواقع المؤقتة أو المتخصصة. يرتبط هذا النوع من الاستيطان بحقبة العصر الحجري القديم في العالم القديم وبحقبة الهنود القدماء في العالم الجديد.

(٢) القبائل أكبر من العصابات؛ إذ قد يصل عدد أفرادها إلى بضعة آلاف، وعادةً ما يستقرون ويشتغلون بالزراعة، غير أن بعضهم قد يمتهن الرعي وتقوم حياته على الترحال. وعلى أي حال، فإن معيشتهم تعتمد في المقام الأول على الموارد المستأنسة والنباتات والحيوانات. إنهم يسكنون منازل أو قرًى زراعية، وتشكل جميعها نمطًا استيطانيًّا تفصل بين مساكنه مسافات متساوية إلى حدٍّ ما؛ بعبارة أخرى، لا توجد مستوطنة توحي بأنها المهيمنة. وهذا النظام مرتبط بالمزارعين الأوائل في كلٍّ من العالَمين القديم والجديد.

(٣) المشيخات — التي يتراوح عدد أفرادها ما بين ٥ آلاف إلى ٢٠ ألف فرد — هي أول علامات حقيقية يظهر فيها تنوع الأوضاع الاجتماعية، على الرغم من أن المقابر الثرية معروفة حتى من العصر الجليدي المتأخر. تعتمد هذه الفئة على نظام الطبقات، ويتحدد مقام الفرد بناءً على مدى قرابته من كبير المشيخة أو زعيمها؛ ومن ثَم لا توجد بنية طبقية فعلية حتى الآن. وزعيم المشيخة هو محور النظام بأكمله؛ إذ إنه يوظِّف أصحاب الحِرَف، ويوزع على أتباعه ورعاياه الأدوات التي تنتجها هذه الحرف، والأطعمة التي تدفع إليه على نحوٍ دوري (وعادةً ما يكون الزعيم رجلًا). وبطبيعة الحال، عادة ما يُدفن مع زعماء المشيخات وأقاربهم أو أصدقائهم مرفقات جنائزية باهظة الثمن.

بوجه عام، تمتلك المشيخات مركزًا للقوة، وبها معابد ومساكن أساسية وأصحاب حِرف. وهذا «المركز الشعائري» الدائم — المصمَّم لإقامة الشعائر الدينية — هو محور اهتمام السكان، ولكنه ليس مدينة ذات بيروقراطية؛ فهذه السمات مرتبطة بالفئة الرابعة والأخيرة.

(٤) يصعب التمييز بين الدول في العصور الأولى والمشيخات، ولكن الحاكم (بعد أن صار اسمه الملك أو الملكة، ويرتفع إلى منزلة الإله في بعض الأحيان) أصبحت لديه السلطة لسَنِّ القوانين وإنفاذها بفضل الجيش الذي لديه. وهنا، ينقسم المجتمع إلى طبقات؛ إذ يشكِّل المزارعون وساكنو الأحياء الفقيرة الطبقة الدنيا، ويشكل أصحاب الحرف الطبقة الوسطى، ويشكل الكهنة وأقارب الحكام الطبقة العليا. وبطبيعة الحال، فُرضت الضرائب (تُثقلنا الديون في خِضم الحياة)؛ ولذا أصبحت البيروقراطية ضرورية في العاصمة المركزية

من أجل إدارة هذه الشئون؛ كما أن نظام التوزيع المعقد للخَرَاج والإيرادات على الحكومة والجيش وأصحاب الحِرف من السمات البالغة الأهمية.

من منظور علم الآثار، بإمكان المرء أن يتعرف على نمط الاستيطان الحضري؛ إذ إن المدن يكون لها دور بارز؛ وعادةً ما تكون مركزًا كبيرًا للسكان؛ حيث يسكنها ما يزيد على ٥ آلاف نسمة، وتضم معابد وأبنية عامة ضخمة. وغالبًا ما يستطيع المرء أن يُدرك التسلسل الطبقي للمساكن، حيث تشغل العاصمة قلب شبكة من المراكز التابعة والقرى الصغيرة.

عادةً ما يستمد علماء الآثار معلوماتهم عن نمط الاستيطان من الدراسات الشاملة لما عُثر عليه بالفعل في المنطقة على مدار سنوات. لكن في «الأراضي غير المكتشفة»، أو المناطق التي تحتاج إلى فهم شامل بالفعل، يكمن الحل في عمل زيارة تفقُّدية؛ بمعنى أن يجوب الفريق (وعادةً ما يكون من الطلاب أو المتطوعين الصَّبورين) المنطقة (أو جزءًا يمثلها في حالة اتساع المساحة، أو عدم كفاية الوقت والأموال) بطريقة منهجية من أجل تسجيل كل القطع الأثرية الظاهرة على سطح الأرض. وتركيزات القطع الأثرية وأنواعها تعطي دلالات على نوعية المواقع ومساحتها والفترة الزمنية التي سُكنت فيها، وعدد المستوطنات وفي بعض الأحيان تسلسلها الهرمي. ومن ثَم يمكن وسمُها بأسماء مؤقتة، مثل مركز إقليمي، أو مركز محلي، أو قرية، أو نجع، أو مسكن، أو معسكر قاعدة، أو منطقة أنشطة متخصصة.

توسَّع بعض علماء الآثار في هذا النهج بحيث شمل كل أوجه الأرض. ففي رأيهم، لم يعد كافيًا تحديد مكان موقع واحد أو حتى سلسلة من المواقع، لا سيما حين يتعلَّق الأمر بالجماعات الرُّحَّل. إنهم يتعمقون أيضًا فيما أصبح معروفًا باسم علم الآثار «خارج الموقع» أو «غير المرتبط بالموقع» (تشير إليه بعض الألسنة القاسية باسم علم الآثار «التسلُّلي» أو «عديم القيمة»)؛ إذ إنهم يبحثون عن القطع الأثرية المتناثرة — وربما لا توجد سوى قطعة أو قطعتين في مساحة ١٠ أمتار مربَّعة — التي توجد بين المواقع المعروفة، وهم يسعون من وراء ذلك إلى التأكيد على الحقيقة الواضحة بأن من اقتاتوا على الصيد وجمع الثمار كانوا يرتحِلون ويسكنون في أي مكان من الأرض، وربما استخدموا المصنوعات اليدوية وتركوها من ورائهم في كل ربوع المكان.

بطبيعة الحال، تسهل مهمة تقييم الاستيطان وبناء المجتمع إلى حد كبير بالنسبة إلى الفترات والثقافات التي لها وثائق خطية أو حتى خرائط؛ فهذه الوثائق والخرائط

تجيب عن أسئلة عديدة قد تدور في أذهاننا عن المجتمع والاستيطان. فعلى سبيل المثال، لدينا آلاف الألواح والوثائق من العصور الأولى من الشرق الأدنى ومصر والصين وبحر إيجة والعالم الكلاسيكي، وفيها تفصيل العلاقات بين المواقع والمناطق المختلفة، وكذلك أنماط الاقتصاد — الوظائف الحكومية، الصفقات التِّجارية — بالإضافة إلى القوانين والمراسيم الملكية والبيانات الإعلامية. فمن المجتمع السومري في بلاد ما بين النهرين، على سبيل المثال، نضع أيدينا على مئات الألواح من المعابد، وفيها قائمة بالحقول والمحاصيل المزروعة فيها، والصفقات الخاصة بالسلع، مثل الغلال والماشية. ما انفكَّ البيروقراطيون يتمسكون بحفظ السجلات.

على الطرف الآخر من المعادلة، في المواقع التي غادرتها العصابات الرحَّل، السجل الأثري هو السجل الوحيد المتاح. وفي مناطق المعيشة التي تحدها جدران الكهوف أو الملاجئ الصخرية، فإن الترسبات فوق المستوطنة قد تكون عميقة؛ إذ تراكمت على مدار قرون أو حتى عدة آلاف من السنين؛ ومن ثَم يحتاج التنقيب إلى التركيز في المقام الأول على النمط الرأسي؛ أي على الطبقات المتراكبة وكيف تغيرت محتوياتها بمرور الوقت. أما على الجانب الآخر، فغالبًا ما تكون المواقع المنفتحة التي تركها الصيادون أقل أهمية بكثير؛ إذ يقل فيها عمق الطبقات؛ لذا فإن النمط الأفقي هنا هو محور الاهتمام؛ إذ يُتتبع توزيع المواقد، والسمات الأخرى، ومجموعات المصنوعات اليدوية.

في حالات نادرة، حيث يمكن تمييز حالات الإقامة لمرةٍ واحدة ولمدة قصيرة في موقع ما، ربما تُكتسب بعض الأفكار عن الأنشطة المحددة ومكان ممارستها، ويعود الفضل في ذلك إلى الموقع الذي يُعثر فيه على المصنوعات اليدوية وحطام صناعة الأدوات وعظام الحيوانات وما إلى ذلك. لكن في معظم المواقع، لا يمكن تمييز حالات الإقامة لمرة واحدة ولمدة قصيرة، بل إن المنقِّبين يُخرجون الأدلة المتراكمة من تكرار الأنشطة في الموقع على مدار فترة من الزمن، سواء أكانت طويلة أم قصيرة، وربما أعانتهم الحيوانات الضارية في إخراجها. ورغم ذلك، فإن هذا لم يمنع علماء الآثار من أن تراودهم أفكار حالمة، حيث إنهم مشهورون بذلك، ومن أن يفسروا هذه المادة وكأنها جميعًا تعود إلى العصر نفسه وكأن الزمن قد توقف، مثل مدينة بومبي وتحطم السفن. وفي الحقيقة، ينطبق الأمر نفسه على المواقع من العصور المتأخرة؛ يروق لعلماء الآثار أن ينسجوا قصصًا تفسر وجود اكتشافاتهم الأثرية وتخطيطها بلُغة بسيطة للغاية، على الرغم من أنهم يعرفون أن العمليات التي أنشأت هذا السجل (المرقَّع وغير المكتمل على نحو مذهل) معقدة إلى أبعد حدٍّ، وعادةً ما تكون على مراحل.

في المجتمعات القطاعية، تُعد الزيارات التفقدية والتنقيب هما النهجين الأساسيين لتحديد المواقع والوقوف على تخطيطها ومساحتها. أما في القرى، فعادةً ما تنقَّب بعض الهياكل بالكامل، وتنقَّب عينات من هياكل أخرى لأخذِ فكرة عن نطاق التنوع. هل كلها مساكن متماثلة، أم توجد أبنية متخصصة أكثر؟ وبداخل المنازل، يَسهل التعرف على أماكن الطهي والنوم والأكل وما إلى ذلك، وربما يسهل التعرف على المناطق التي استخدمها الذكور وتلك التي استخدمتها الإناث.

يكشف تحليل المرفقات الجنائزية أو مستوى الغُلُو والتأنُّق في المقابر عن مقدار التمييز الأولي في الوضع الاجتماعي داخل المجتمعات القطاعية، على الرغم من أنه ليس من السهل دائمًا التفريق بين الوضع الاجتماعي المكتسَب والوضع الاجتماعي الموروث. لكن إذا دُفن الأطفال ودُفنت معهم ثروة عظيمة، فإن الافتراض المنطقي يقول إن الوضع موروث وليس مكتسَبًا.

من المصادر الأساسية الأخرى للحصول على المعلومات عن هذه المجتمعات معالمها الأثرية العامة؛ مثل الساحات المسوَّرة المرتفعة وتلال الدفن الترابية التي يعود تاريخها إلى العصر الحجري الحديث في بريطانيا. وبالنسبة إلى المزارعين في هذه الحقبة المبكرة، فُقدت معظم المساكن بسبب عمليات الحرث والتعرية اللاحقة؛ وبوجه عام، لم يُكتشف سوى بضع مقالب للنفايات أو حُفر من الدعائم الخشبية، لكن لا يزال بمقدورنا التوصل إلى أفكار بشأن أنماط معينة عن المجتمع من تحليل نطاق المعالم الأثرية وتوزيعها. على سبيل المثال، تُقسِّم الخطوط المرسومة بين تلال الدفن الجماعية (تلال الدفن الطويلة) المسطح الأرضي إلى مناطق متساوية تقريبًا، ما يشير إلى أن كل مَعلم يمثل نقطة محورية للأنشطة الاجتماعية، ومكان دفن رئيسي للقرية التي قطنت المنطقة القريبة منه. ويُعتقد أن إنشاء تل واحد من هذه التلال الطويلة أنجزه ٢٠ فردًا في مدة بلغت ٥٠ يومًا، ويبدو أنها خدمت مجتمعات سادت فيها المساواة. على الجانب الآخر، تُوحي الساحات المسوَّرة (وهي معالم أثرية دائرية الشكل، وذات مساحة واسعة، وبها أخاديد متَّحدة المركز) أنها أماكن اجتماعات محورية ودورية، وقد أُنشئت لاستيعاب أعداد أكبر، ويُفترض أن هؤلاء الأفراد كانوا يتوافدون من القرى الصغيرة المختلفة؛ إذ إن بعض الأخاديد عُثر فيها على فئوس حجرية جُلبت من أماكن بعيدة. وإنشاء الساحة الواحدة تطلب نحو ١٠٠ ألف ساعة عمل، أو ٢٥٠ عاملًا لمدة ٤٠ يومًا. هؤلاء الناس صنعوا وسائل ترفيههم حينذاك. ببساطة، لم يكن ثَمة بُد من تقصير ليالي الشتاء الطويلة بشيء من ...

شكل ٦-١: ستونهنج، ويلتشَير.

وفي أوقات لاحقة، حلت «الدوائر الحجرية» محل هذه الساحات، وهي نوع جديد من الساحات المسوَّرة الشعائرية (معالم دائرية الشكل يحيط بها خندق له ضفة خارجية)، وقد تطلب إنجاز كل دائرة حجرية نحو مليون ساعة عمل. وهذا الاكتشاف يقترح أنه حُشدت أعداد كبيرة من الناس، ربما وصل عدد العمال إلى ٣٠٠ عامل بدوامٍ كامل لمدة سنة أو أكثر، وقد أُحضروا من منطقة أكبر. يمثل نطاق هذا الجهد ووجود هذه المراكز الشعائرية الرئيسية علامة على الانتقال من المجتمعات البسيطة التي تسود فيها المساواة بين المزارعين من العصور الأولى إلى مشيخات تظهر فيها الطبقية.

ثَمة دليل أكثر وضوحًا على قيام المشيخات، وهو امتلاء المناطق حول هذه الدوائر الحجرية في نهاية المطاف (بما في ذلك ستونهنج، وهي أم معالم الدوائر الحجرية الأثرية، وقد تطلب بناؤها ٣٠ مليون ساعة عمل) بتلال دفن دائرية تحتوي على مرفقات جنائزية باهظة الثمن، ما يبرز ثراء الأعيان في هذه المجتمعات.

ثَمة نهج آخر لدراسة التحول من المجتمعات القطاعية إلى أنظمة أكثر تعقيدًا، وهذا النهج هو تخصُّص الحِرف؛ وبالطبع هذا التخصص موجود في مجتمعات العصابات، ويمكن رؤية هذا في العصر الجليدي؛ إذ إنه لم يكن بمقدور كل شخص أن يصنع

شكل ٦-٢

أفضل أدوات من الحجارة أو العظام، أو أفضل منحوتات أو فن صخري. وفي المجتمعات القطاعية، كانت الأعمال الحرفية تنظَّم في المقام الأول على مستوى الأُسرة، وربما يُعثر في مواقع القرى على أفران فخَّار أو نفايات صهر الأدوات المعدنية. لكن في مجتمعات المشيخات والدول الأكثر مركزية، يمكن رؤية أحياء كاملة من المدن مخصصة بالكامل لحِرف متخصصة؛ مثل الأدوات الحجرية وصناعة الفَخَّار والمصنوعات الجلدية والنسيج والتخمير والأدوات المعدنية والزجاجية، وما إلى ذلك.

حيثما تُفقد النصوص الخطية (مثلما الحال في معظم المشيخات) أو تكون غير كافية (مثلما الحال في معظم الدول)، فلا سبيل إلى معرفة التسلسل الطبقي إلا عن طريق الاستنتاج باستخدام الوسائل الأثرية. فمثلًا، يمكن استنتاج العاصمة أو المركز الرئيسي من الحجم ومن علامات التنظيم المركزي، مثل وجود الأرشيف أو دار السَّكة أو القصور والأبنية الدينية الرئيسية أو التحصينات. بطبيعة الحال قد يصعب تحديد وظائف الأبنية الضخمة والعامة (افتراضًا) تحديدًا دقيقًا، وربما كانت تُستخدم في عدة وظائف؛ إذ إن المعابد على سبيل المثال يمكن أن تكون لها وظيفة اجتماعية ودينية على حد

سواء. لكن الأسهل اكتشاف الجوانب الأخرى في المدينة، مثل المناطق المخصَّصة للحرفيين أو الفروقات بين منازل الأغنياء والأحياء الفقيرة. إنها تجربة مثيرة أن تتخيل المدينة التي تسكن فيها الآن وكأنها أطلالٌ مهجورة، وعلماء آثار من خارج الأرض يتجولون فيها، ويحاولون تخمين المعالم التي ينظرون إليها؛ هم أيضًا سيتمكنون من وضع بعض استنتاجات أساسية بأريحية كبيرة، على الرغم من أنه قد يقع في طريقهم معالم غريبة مثل استوديوهات التصوير الفوتوغرافي، ومجمَّع لدور السينما، ومغاسل الملابس، وكلها يوحي مظهرها بأنها بؤر شعائرية.

من السمات الأساسية المميزة في المجتمعات المركزية التفاوتُ بين الأغنياء والفقراء، ليس من حيث الثروة الأساسية فحسب، بل أيضًا من حيث الوصول إلى الموارد والمرافق والوضع الاجتماعي؛ بعبارة أخرى، التفاوت في الطبقات الاجتماعية. وكما ذكرنا آنفًا، يسهل اكتشاف الفروق في المساكن والثروة المادية. إضافةً إلى ذلك، عادةً ما يصوَّر أصحاب المكانة العالية في النقوش أو المنحوتات الرائعة، وكما ذكرنا سابقًا فإن المقابر المبهرَجة هي الرمز «النهائي» الذي يدل على الوضع الاجتماعي؛ وبوجهٍ عام، لن يُعثر على الأثرياء مدفونين في مقابر الفقراء. ولا يرجع هذا العرض الجلي للثراء الفاحش إلى الصور التي تعرضها مجلة «فوربس» أو مجلة «تاتلر»، بل تتجذَّر أصوله لتصل إلى عصر بناء الأهرامات وما قبله. وتذكَّر أن الملك توت عنخ آمون كان فرعونًا صغيرًا وقاصرًا، فما بالك بالكنوز التي يجب أن تُدفن مع الملوك الأعظم؟ شيء يحير العقل …

وفيما يتعلق بأحجار ستونهنج نفسها، كثرت النظريات وتغيَّرت على مر العقود. والفكرتان المتنافستان على التميز في وسائل الإعلام والمؤلفات البحثية في الوقت الحالي هما: إما أن المكان كان مخصصًا للموتى، وقد مورس فيه عدد كبير من عمليات الدفن وحرق الجثث، وإما أنه مكان يُشبه مزار لورد حيث يقصده الناس من أجل الشفاء. بالطبع قد تكون النظريتان صحيحتين، وكذلك بعض النظريات التي باتت في طي النسيان الآن، والتي لم تُتخيَّل بعد.

الفصل السابع

كيف حدثت التغيرات، ولماذا؟

لعل أصعب الأسئلة التي تواجه عالم الآثار هي التي تبدأ بأداة الاستفهام «لماذا». فما الذي أحدث التغييرات المشهودة في المجتمعات القديمة في السجلات الأثرية؟ يصب كلٌّ من التعددية واتساع نطاق علم الآثار في العصر الحالي وتشعُّب النهج الخاصة بماضي الإنسان في تنوع نظرية علم الآثار المعاصرة، وهذا التنوع لا يُرى إلا كونه نقطةَ قوة، ولعله يتمخَّض عن رؤًى جديدة: لا بد من استكشاف كل السبل، حتى وإن تبيَّن أن العديد منها نهايته مسدودة. يرتبط التنوع جزئيًّا بالتصورات والمفاهيم المسبَقة المختلفة لدى علماء الآثار. وفي الحقيقة، ما انفكت محاولات علم الآثار في شرح الماضي، ولا سيما التغيرات التي حدثت في الماضي؛ تتنوع تنوعًا كبيرًا تبعًا للميول والسياسات والخلفية الاجتماعية لدى علماء الآثار، إذ يصب العالِمُ تركيزه على عامل واحد فقط مثل البيئة أو تغير المناخ أو التكنولوجيا أو الضغط السكاني أو الغزو أو الكوارث، أو غيرها من العوامل.

تبيَّن أنه لا شيء كافٍ من هذه التفسيرات «الأحادية العامل»، ولكن ربما يحمل كل تفسير منها قدرًا من الحقيقة. وعلى أي حال، يعكف علماء الآثار باختلاف مشاربهم على محاولة تفسير الأحداث المختلفة بناءً على الحقبة الزمنية أو النطاق الزمني أو نوع الموقع أو المسألة التي يهتمون بها. فعالمٌ يتناول تغير توزيع المواقع في العصر الجليدي ربما يستخدم نهجًا مختلفًا عن عالم يدرس غليون التبغ المصنوع من الصلصال ويبلغ عمره بضعة قرون. وبذلك يتضح أن في أيدينا مجموعة كبيرة من التفسيرات التي ننتقي منها؛ على سبيل المثال، هل يحاول الواحد منا دراسة أحداث فردية في الماضي أم حلقات قصيرة المدى أم صورة طويلة المدى وتمثل مزية فريدة في علم الآثار؟ ومن الأسئلة التي يمكن طرحُها ما يأتي: ما أسباب تدمير هذه المدينة؟ أو ما الذي أحدث هذا النمط في المادة الأثرية؟ أو كيف بدأ إنتاج الغذاء على مستوى العالم؟ وحرِيٌّ بالمرء أن يختار تفسير عالم

ما بعناية كي يطمئن إلى أنه سيساعده في المسألة التي هو بصدد دراستها. ولحسن الحظ، يوجد كم هائل من التفسيرات التي ننتقي منها.

على مدار سنوات عديدة، ظل معظم علماء الآثار قانعين بالإجابة عن الأسئلة البسيطة التي تحمل أدوات الاستفهام «ماذا»، و«متى»، و«أين»، و«كيف»، كما أنهم غضُّوا الطَّرْف عن الأسئلة الأصعب أو نحَّوها جانبًا بإجابات مبسَّطة، بل إنهم ركزوا على ما يعتبرونه داخلًا في «علم الآثار». وكما قال فيليني ذات مرة: «لا أعرف كيف أطرح الأسئلة، ولا أعرف متى أتمكن من طرح سؤال ذكي، بل أجدُني غير مهتم حقًّا بالإجابة.» وعلى الرغم من ذلك، فقد أنتج أفلامًا جيدة (وأنتج كذلك أفلامًا سيئة بالطبع). لكن في العقود القليلة الماضية، اكتسب «علم الآثار النظري» شهرةً واسعة، لا سيما في أمريكا الشمالية وبريطانيا والدول الاسكندنافية، وقد انعقدت سجالات شديدة التجريد. لا بد من توضيح كل شيء؛ فقد رُفع الستار عن كل الافتراضات الخفية، وكذلك عن الاستدلال المنطقي الداعم لكل مرحلة في طرح التفسيرات.

لا تزال الشُّعب الأخرى، مثل علم الآثار الكلاسيكي أو التاريخي، تصب تركيزها على العمل الميداني وتحليل النصوص والتعامل مع الأدلة الحقيقية. على سبيل المثال، بعض علماء الآثار في ألمانيا — حيث يُخصص اهتمام ضئيل جدًّا للنظريات — عادةً ما يرون علماء الآثار التنظيريين ينتمون إلى علم الآثار اسمًا فقط (لا سيما أنهم ليسوا متأكِّدين من أن يخلفهم أحد). وعلى الرغم من ذلك، ما برِح علم الآثار يتأثر تأثرًا كبيرًا بالنظريات، سواء كان ذلك ضمنيًّا (أو حتى دون وعي) أو صراحةً. على سبيل المثال، قدمت فكرة التطور — التي طرحها تشارلز داروين بأقصى درجات الوضوح في كتابه «أصل الأنواع» عام ١٨٥٩ — تفسيرًا منطقيًّا لأصل الجنس البشري وتطوره، وقد أثرت هذه الفكرة من فورها في علماء الآثار حينذاك، وساعدت في وضع الأساسات التي يُستند عليها في دراسة التصنيف النوعي للمصنوعات اليدوية (الفصل الأول). وفي المجال الاجتماعي أيضًا، رُسِمت مخططات تقدُّم الإنسان في سبعينيات القرن التاسع عشر على يدِ كلٍّ من إدوارد تايلور (من بريطانيا) ولويس مورجان (من أمريكا)؛ حيث اقترحا أن المجتمعات البشرية تطورت من مرحلة «الوحشية» (الصيد البدائي) مرورًا بمرحلة «البربرية» (الزراعة البسيطة) ثم إلى مرحلة «الحضارة» (وهي أرقى أشكال المجتمع). وتوجد في بعض الأحيان مرحلة رابعة، وهي مرحلة الانحطاط.

على وجه الخصوص، اعتمدت مخططات مورجان اعتمادًا كبيرًا على معرفته بالهنود الأمريكيين الذين هم على قيد الحياة، ومعرفته بأن هؤلاء الناس سبق أن عاشوا حالة من

الشيوعية البدائية، أي كانوا يتشاركون الموارد بالتساوي، وهذا بدوره أثَّر تأثيرًا عميقًا في مؤلفات كارل ماركس وفريدريك إنجلز عن مجتمعات ما قبل الرأسمالية، وقد ألهمت هذه المؤلفات عالِم الآثار العظيم جوردون تشايلد، المولود في القرن العشرين في أستراليا، والمتخصص في حقبة ما قبل التاريخ. ففي أحد مؤلفات تشايلد الأخيرة — التي تأثرت بالأفكار الماركسية والثورة الماركسية في روسيا (في مرحلة متأخرة نسبيًّا) — طرح فكرة أنه في حقبة ما قبل التاريخ اندلعت «ثورة العصر الحجري الحديث»، ما أدى إلى النهوض بالزراعة، ثم اندلعت «ثورة حضرية» أدت إلى بناء القُرى والمدن الأولى. وكان تشايلد من أوائل علماء الآثار الذين اهتموا اهتمامًا حقيقيًّا بحل هذه المواضيع الشائكة التي تتناول بدقة لماذا وقعت الأحداث وتغيرت في الماضي وكيف، على الرغم من أنه كان موهوبًا كثيرًا في جمع البيانات، ومرتاحًا أيَّما راحة في المسعى الأكثر تقليديةً، وهو إنشاء التسلسلات الزمنية والتصنيفات النوعية. قد تكمن الإجابة عن هذا التناقض الواضح في انحرافه ونهجه غير التقليدي تمامًا في الحياة؛ فالأسماك الميتة فقط هي التي تسبح مع التيار.

في أمريكا، كان أحد أكثر المفكرين تأثيرًا في القرن العشرين هو عالم الأنثروبولوجيا جوليان ستيوارد، الذي قدم تفسيرات للتغيُّر الثقافي بناءً على فَهمه لأنماط الثقافات الموجودة في عصرنا الراهن. فهو لم يركز على كيفية تفاعل الثقافات بعضها مع بعض فحسب، بل ركز على مدى تأثير البيئة في إحداث تغيير ثقافي، وهو ما أسماه «علم البيئة الثقافي». أما عالم الآثار البريطاني جراهام كلارك — المتخصص في حقبة ما قبل التاريخ منذ ثلاثينيات القرن العشرين فما بعد — طوَّر نهجًا بيئيًّا يختلف عن علم الآثار التقليدي الذي تهيمن عليه المصنوعات اليدوية، والذي اهتم به معاصروه، فقد أدى تأكيده على كيفية تكيف السكان مع بيئتهم إلى التعاون مع العديد من أهل التخصصات الأخرى، الذين يمكنهم التعرف على بقايا النباتات والحيوانات، وأعاد بناء بيئة الماضي وطرق العيش بقدر كبير من التفاصيل. وقد وضع هذا العمل الرائد أسس شُعبة كاملة من علم الآثار الحديث.

بحلول ستينيات القرن العشرين، ترسَّخ هذا النوع من علم الآثار «العلمي»، ومع ظهور طرق التأريخ المطلق (الفصل الثاني)، باتت التواريخ تحدَّد بسرعة كبيرة، ولم تعُد ضمن الأهداف الأساسية في البحث. ومن ثَم أتيحت الفرصة للانتقال — أو تخصيص مزيد من الاهتمام — إلى الأسئلة الصعبة حقًّا بدلًا من الأسئلة البسيطة المتعلقة بالتسلسل الزمني أو الثقافة. ومن هنا طفَت حالات الاستياء؛ ففي حركة تذكرنا بتمرُّد الشباب

الأثرياء على آبائهم القانعين بأنفسهم، بدأ «بعض العلماء الشباب المستائين» — لا سيما في وسط غرب أمريكا — يحطُّون من قدر الطريقة التي تُجرى بها البحوث الخاصة بعلم الآثار، وخصُّوا منها — بقدر من التبرير — التفسيرات البسيطة التي تُطرح لتوضيح الأنماط في البيانات، مثل الهِجرات أو الغزوات أو الانتشار أو «التأثيرات» الغامضة. تكاد الأدوات الحجرية والمصنوعات الفخارية تُرى على أنها مرادفة للشعوب، وكأنها ترتحل وتتزاوج من أجل إنتاج أنواع وأنماط جديدة. وبطبيعة الحال، فقد وقعت الهجرات وشُنَّت الغزوات، في واقع الأمر، في الماضي (مثل الاحتلال الأول لجزر المحيط الهادي)، ولكن ربما لم يكن التعرف عليها شائعًا أو مباشرًا في السجلات الأثرية، وهذا على خلاف ما اعتُقد من قبل.

جاء الرفض الشديد من العلم الذي أصبح معروفًا باسم «علم الآثار الحديث» أو «علم الآثار الإجرائي»، وهذه التسمية نابعة من التركيز على التفسيرات الإجرائية أو دراسة العمليات المختلفة التي تحدث داخل المجتمع. وإذا غضضنا الطَّرْف عن الشخصيات المعنية — من المفارقة أن الشَّيب قد اشتعل في شعر لِحاهم وتعتبرهم الأجيال الشابة أن الزمن عفا عليهم وأصبحوا مملين — فما الجوانب الإيجابية لهذه الحلقة من تطور علم الآثار؟ أولًا، شجعت العلماء كي يتحلوا بمزيد من التفاؤل (أو حتى المثالية) بشأن أنواع وكم المعلومات التي يمكن استخراجها من الآثار المادية التي خلفها الماضي. وقد أثمر هذا عن مزيد من الوضوح في كل مراحل الاستنتاج المنطقي في علم الآثار؛ ومن ثَم لا يجدُر قبول فكرةٍ ما لمجرد أن مقدمها هو العالم فلان لأنه حُجَّة وخبير ذو مكانة مرموقة في علم الآثار. وبذلك يتوجَّب أن تقوم كل حجة على إطار من المنطق، وعلى فرضيات سديدة وقابلة للاختبار. وفي بادئ الأمر، كان جُل التركيز ينصبُّ على التفسير دون الوصف. فبدلًا من الطرق البسيطة الخاصة بعلم الآثار الأول (مثل التأثيرات والهجرة وغير ذلك)، كانت الثقافات تُحلَّل على أنها أنظمة رئيسية وأخرى فرعية. فقد كُرِّس قدر كبير من الاهتمام إلى العلاقات بين البيئة ولقمة العيش والاقتصاد، وإلى التفاعل بين الوحدات الاجتماعية المختلفة؛ ومن الأمثلة على ذلك: الطرق التي عملت بها الجوانب المختلفة في المجتمع، وكيف توافقت معًا، بحيث تساعد في تفسير التطورات بمرور الزمن؛ ومن ثَم تساعد في وضع «قواعد» لصلاحية التطبيق العام في السجلات الأثرية.

بالطبع جانب كبير من هذا كان امتدادًا طبيعيًّا لما بدأه ستيوارد وكلارك والعديد من الرواد غيرهما، وأضف إلى ذلك المساهمات الجديدة التي قدمتها العلوم الصعبة

وتكنولوجيا الكمبيوتر في كل مجالات التحليل، وكذلك الأفكار المستمَدَّة (على الرغم من أنها لم تُكلَّل بالنجاح والتوفيق على الدوام) من الجغرافيا وفلسفة العلوم وعلم البيئة، وغيرها من العلوم. وفي حقيقة الأمر، في بحث مُضنٍ اضطلع به علماء الآثار الجدد عن الحداثة، أدخلوا العديد من المفاهيم المتنوعة من كل المجالات، ولا شك أن تلك المفاهيم فتحت آفاقًا مفيدة وسط هذه الأفكار السطحية القليلة الفائدة. إنما مثَّل علم الآثار كمثل إسفنجة ضخمة تمتص وتدمج بداخلها قصاصات الأفكار والتقنيات من محيطٍ يضم كل التخصُّصات العلمية.

للأسف، يمكن القول: إن المعارك الكلامية التي شنَّها «علم الآثار الحديث» ضد «التقليديين» لا تشبه شيئًا بقدر ما تشبه السياسات الحزبية ذات المبادئ الشديدة التعارض؛ حيث يقتتل أنصار كل حزب في انتقاد كل ما يقوله أو يفعله الحزب المعارض. ومن ثَم أصبحت النظرية شارةً شخصية؛ إذ يختارها الشخص كما يختار حزبًا سياسيًّا أو دِينًا. وهذا يعني الانحياز إلى مجموعة واحدة، وبدأت النظريات يكون لها مشجعون مثلما هي الحال مع نجوم موسيقى البُوب. وعلى إثر ذلك، كوَّن أصحاب علم الآثار الحديث «المجموعة الداخلية»، ومن ثَم يُنبَذ أي شخص آخر تلقائيًّا إلى «المجموعة الخارجية»؛ ومن هنا جاءت الإدانة الصاخبة لمبادئ التقليديين وممارساتهم؛ إذ إن السببين الأساسيين في نبذهم هما: زعمهم أنه لا مجال للنظريات، ومنهجهم غير العلمي. على الرغم من ذلك، أشار ستيفن جاي جولد إلى أن السكوت عن طرح النظريات لا يدل على أنه لا توجد نظريات. ولم تدرك الأجيال الشابة في علم الآثار الحديث أنه توجد طرق مختلفة لممارسة علم الآثار، وكلها طرق مشروعة وصالحة إلى حدٍّ ما.

اتَّسم هجومهم وشراستهم بالضراوة، كما أنهم لم يكتفوا بتوجيهه إلى خصومهم، بل وجهه بعضهم إلى بعض؛ وكأنهم يقولون إذا كنت في موقف ضعيف، فاصرخ! لكن توجد سمات لدى أهل علم الآثار الحديث تسببت في أكبر قدر من الإساءة، وهي العُجب والتعصُّب والتشبُّث بالرأي وغموض اللغة؛ وهي سمات منبوذة؛ لأنها أخفت صدقًا جوهريًّا ومتَّقِدًا، وقللت من تأثير الجوانب الإيجابية في نهجهم إلى حدٍّ كبير. فقد عجَّت لغتهم بالألفاظ الاصطلاحية، واتُّخذت بديلًا للفكر؛ فالإسهاب المفرط عادةً ما يخفي نقصًا جوهريًّا في المعلومات الحقيقية. وفي رأي الكثيرين، فلم يكن تعبيرهم عن أفكارهم تعبيرًا ضحلًا فحسب، بل كانت أفكارهم خاوية، وهُم قالوا ذلك علانية بل أكثر من مرة.

آل كلُّ هذا التفاخر والتهويل المفرطَين إلى سخرية حين أتت اللحظة الحاسمة؛ فدائمًا ما تنطلق الضحكات حين يُرى شخص متباهٍ وقد انكبَّ على وجهه. وبطبيعة الحال،

تكمن بعض الفوائد في هذا كله، لكن إذا ركنت إلى أيديولوجية تنهار في نهاية المطاف (كما يفعل الجميع)، فلن تخرج من دون أن يطولك أذًى. وبمرور الوقت، سكت الغضب، وأدرك المناصرون أنه لا توجد قوانين كونية إعجازية في سلوك الإنسان كي تُستخلَص من البيانات الأثرية غير القوانين المباشرة وذات التبسيط المفرط (ومن أشهر الأمثلة عليها قانون: «كلما زاد السكان في الموقع، زادت أعداد أقبية التخزين»)، كما أدركوا أن علم الآثار الحديث لم يُنجِز كثيرًا مما وعد به؛ إذ بشَّر بمستقبل مشرق جديد «قائم على العلم» في إعادة إحياء الماضي. لقد نضج الشباب المتحمس والمتمرد حتمًا، وبلغوا مرحلة الواقعية البراجماتية التي يتميز بها منتصف العمر. ولكن ظل الحال كما هو بالنسبة إلى الغالبية العظمى من علماء الآثار، لا سيما من هم خارج بريطانيا وأمريكا الشمالية. لكن الكلاب تعوي والقافلة تسير.

لكن حدث ما لا مفر منه، وسرعان ما اندثر «علم الآثار الحديث»، وبدوره حُطَّ من قدره؛ إذ حلَّت محله نُهجٌ جديدة على يد شباب أتراك استماتوا كي يأتوا بجديد ويتركوا بصمتهم. كذلك نُبِذ علم الآثار الإجرائي لأنه يتبع النمط «العلمي» أو «الوظيفي»، ويعتمد على التفسيرات البيئية، ويُفرط في الاهتمام بالأنماط النفعية للحياة. وبذلك، أصبح لدينا كمٌّ هائل من النُّهج، وقد عجَّ المجال بالجدالات بين أنصار الوضعية والماركسية والبنيوية وما بعد البنيوية ومَن على شاكلتهم حتى بلغ السيل الزُّبى.

أخص بالذكر هنا ظهور نهج يُسمى «علم الآثار ما بعد الإجرائي» أو «التأويلي»، وينطوي على تأثيرات من الدراسات الأدبية ومن مجالات أخرى تشمل التاريخ والفلسفة. رفض هذا النهج التعميمات التي يبدو أنها أحد أهداف علم الآثار الحديث، ومن ثَم انصبَّ تركيزه على تفرد كل مجتمع وثقافةٍ وتنوعِهما. بالإضافة إلى ذلك، أصرَّ على عدم إمكانية تحقيق الموضوعية التي هي هدف آخر من أهداف علم الآثار الحديث، وقد أصاب حين جَزم بأنه لا توجد طريقة واحدة أو صحيحة لتفسير الماضي أو لإجراء البحوث المتعلقة به. ونتيجة لذلك، فإن لكل راصدٍ الحق في أن يُدلي برأيه عن الماضي، ما يؤدي حتمًا إلى موقف «يباح فيه كل شيء»؛ حيث ينبغي أن تعتبر آراءُ غير المطَّلع أو الدعيِّ أو كاتب الخيال العلمي صالحة مثل آراء أهل التخصص المطلعين! كذلك انصبَّ تركيز جديد على الجوانب الرمزية والإدراكية الخاصة بالماضي (انظر الفصل الخامس)، وعلى الأفكار والمعتقدات التي اعتنقتها المجتمعات في الماضي، وعلى أعمال الذين قضوا منذ أمدٍ بعيد وأفكارهم، ويصحب ذلك محاولات حازمة لـ «النفاذ إلى عقولهم»؛ وهذه المهمة ليست سهلةً البتة.

نقطة مهمة ينبغي ألا تغيب عنا حين ندرس علم الآثار النظري، وهي أنه لا يُتوقع من أي أحدٍ أن يكون على صواب تامٍّ بشأن أي جانب من الماضي؛ وعلى أي حال، كيف لنا أن نعرف إن كنا على صواب أم على خطأ؟ فالمعرفة ليست سوى تخمين خضعَ لاختبارات متفاوتة، والكلمات من مثل البرهان والحقيقة والموضوعية لا تنطبق على عالم التخمينات. وما نسعى إلا لأن نزيد مقدار الثقة التي يمكن أن نضعها في هذه التخمينات. يتعامل علم الآثار مع درجات من الاحتمالات، وواضح تمامًا أن الفرضية المنطقية القائمة على بيانات موثوقة أقرب على الأرجح إلى الحقيقة من فرضية خيالية منسوجة من لا شيء ولا يدعمها دليل (فرضية لا أساس لها على الإطلاق).

شيء آخر بالغ الأهمية ينبغي تذكُّره وهو أن علم الآثار النظري ينبغي ألا يؤخذ على محمل الجد كثيرًا؛ فمن السهل السخرية ممن أصبحوا مهووسين به؛ وفي الحقيقة هذه نقطة جوهرية. أسوأ جزء هو أن العديد منهم يبدو أنه أصبح غاضبًا وكثير التذمُّر ولا يرى الامتيازات الهائلة والعظيمة والمهيبة لمن يشتغل بعلم الآثار.

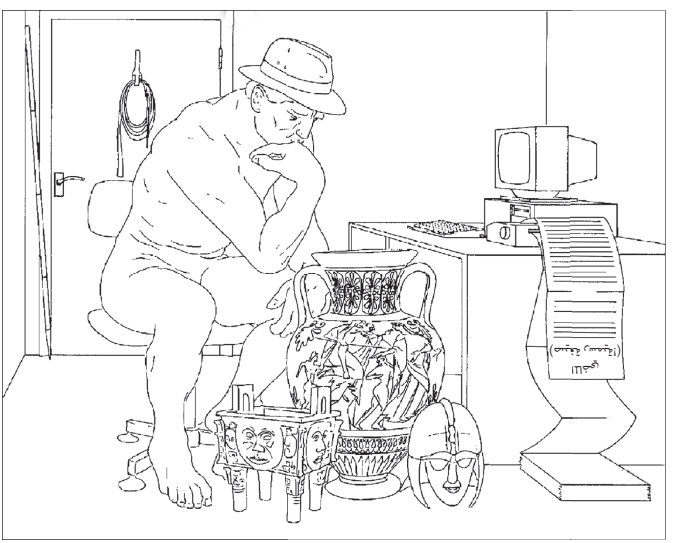

شكل ٧-١: الفجوة الواقعية (١): الطريقة التي يروق لبعض علماء الآثار أن يراهم بها الآخرون (وكما يروق لهم أن يروا أنفسهم) …

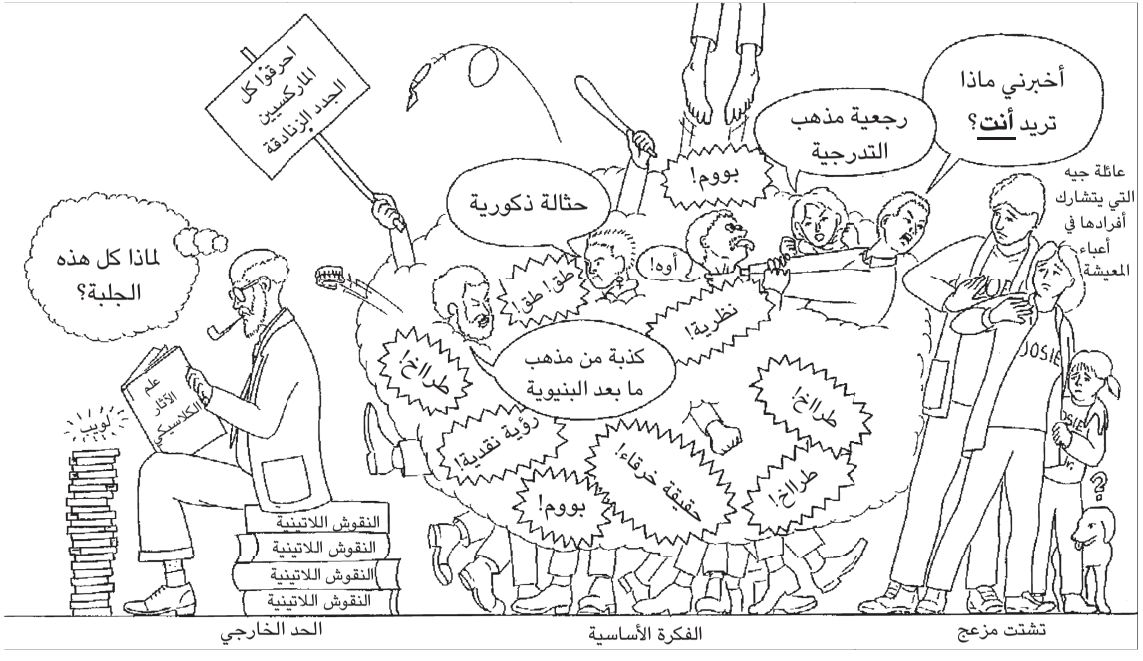

شكل ٧-٢: الفجوة الواقعية (٢): ... ونظرة واحدة لحقيقة علماء الآثار.

ولكن من المفارقات أنه بعد سنوات من المعارك العقيمة والكلامية، اتَّجه كثير من أنصار علم الآثار النظري إلى العمل الميداني، وقد أصبحت التفسيرات المطروحة للتعبير عن تغييرات الماضي أشد تعقيدًا بكثير، وتضمنت العديد من العوامل (ويطلق عليها «التفسيرات المتعددة المتغيرات»)؛ ونتيجة لذلك، صارت هذه التفسيرات أقرب إلى الواقعية. وعلى الرغم من ذلك، فلن نتمكن البتة من إعادة إحياء «الماضي الحقيقي» الذي كان متنوعًا ومعقَّدًا إلى أبعد الحدود. وأفضل ما يمكننا فعله أن نحاول توضيح بعض المؤثرات والعوامل الرئيسية فيه، تمامًا مثلما يفعل المؤرخون.

يقول المتهكِّمون: إن جانبًا كبيرًا من علم الآثار النظري يتكون ببساطة من تقنيات للعثور على إجابات غير مفاجئة لأسئلة واضحة، ولم يكن لدى أحدٍ الوقت أو الأدوات أو الميل لطرحها من قبل. ولأن الإفراط في التجريد لا يمكن تطبيقه على الأدلة الأثرية الفعلية، بل لا يمكن تطبيقه إلا على النماذج التي جُعلت مثالية وعمليات المحاكاة بالكمبيوتر، ولأنه لا يتحدث بلغة ذات معنًى أو بمصطلحات تهم الرجل العادي (الفصل التاسع)، فقد أُهملت أسس هذا الموضوع بالجملة. وفي كثير من الأحيان، ينسج منظرو علم الآثار قصصًا جميلة ومقنعة للغاية، ولا يشوبها إلا حقيقة أنها لا تحمل أدنى تشابه مع الواقع أو مع العالم الحقيقي للبيانات الأثرية، التي يحاول البشر الأقل شأنًا التعامل معها.

الفصل الثامن

الأقليات والجمعيات النسائية

حتى وقت قريب جدًّا، كان علماء الآثار يُرَون — أو على الأقل يرون أنفسهم — بأنهم مُنقِّبون عن المعلومات يتسمون بالوداعة والبراءة؛ إذ إنهم لا يفعلون سوى الخير للمناطق أو البلدان التي يعملون بها، وذلك عبر إحياء الماضي واسترجاع الأمجاد السابقة. لكن منذ سبعينيات القرن العشرين، أحاطت بهم — ومعهم علماء الأنثروبولوجيا — الذمائمُ من كل جانب، وكانت هذه صاعقة بالنسبة لهم. فقد وُجهت إليهم اتهامات العنصرية والمركزية الأوروبية والاستعمار الجديد وسرقة المقابر والتعصُّب الذكوري (ليس بالضرورة أن يُتَّهموا بكل هذه الاتهامات جُملةً، أو بهذا الترتيب). انتهت الأيام الخوالي لعلم الآثار، وقد عاد إلى سابق عهده، وبات مضطرًّا إلى إجراء مراجعات طويلة وشاقة ونقدية لممارساته وأهدافه.

في الماضي، بوجهٍ عام، أحس علماء الآثار — ضمن سياق الاستعمار أو الهيمنة الغربية — بأن لديهم الحق في أن يعملوا أو يحفروا في أي مكان يحلو لهم، وأن ينتهكوا حُرمة الموتى، وأن ينقلوا رفات الإنسان والمواد المقدسة إلى المتاحف من دون أي تصريح أو تشاور مع السكان الأصليين، الذين، في أفضل الحالات، يوظَّفون مُرشدين أو عُمالًا، وفي أسوئها يُتجاهلون تمامًا. لكن في العصر الراهن، لم تعد بعض المجموعات من أهل البلاد ساخطة فحسب، لا سيما في أمريكا الشمالية وأستراليا ونيوزيلندا، بل إنهم يطالبون باسترداد هذه الآثار.

بعض هذه المطالب منطقية تمامًا، مثل التماس بسيط لمشورة السكان الأصليين وطلب إذنهم. وكما قال أحد سكان أمريكا الأصليين في مؤتمر عن «إعادة الدفن» عام ١٩٨٩: «ليس عليكم إلا أن تطرقوا الباب وتستأذنوا. فلِمَ التسلق من النافذة والسرقة؟»

كذلك يدعم كثير من علماء الآثار وعلماء الأنثروبولوجيا عودة الرفات البشري الحديث الذي ينتمي إلى شخصيات معروفة، أو القطع الأثرية التي لها قدسية خاصة (مثل آلهة الحرب لشعب الزوني الذي عاش في جنوب غرب أمريكا؛ إذ لا يخفى أنها تعرضت للنهب، لأن شعب الزوني ما كان ليرتكب هذا الفعل مطلقًا).

تنشأ المشكلات حين تكون مطالب أهل البلد واسعة النطاق وتشمل كل الرفات البشري حرفيًّا (بما في ذلك العينات القديمة للغاية) أو مجموعات الأدوات بالكامل. وفي بعض الحالات، تبلغ هذه المطالب حدودًا مُتطرِّفة وسخيفة؛ ففي الولايات المتحدة، على سبيل المثال، أعلنت فئة صغيرة من سكان أمريكا الأصليين أنه حتى خصلات الشعر البشري المتساقطة بطبيعتها — المستعادة من المواقع الأثرية — تدخل ضمن الرفات البشري (ومن ثَم فإن لها حرمتها)، وقد طولب باسترجاعها!

نشب جدال ومعركة قانونية حول عظام «رجل كينويك» التي عُثر عليها عام ١٩٩٦ في ولاية واشنطن، ويعود تاريخ الكربون المشع إلى ٩٣٠٠ عام قبل سنة ١٩٥٠. فقد رفع ثمانية من علماء الأنثروبولوجيا البارزين دعوى قضائية ضد سلاح المهندسين في الجيش — إذ إنه كانت له الولاية القضائية على الموقع — للحصول على إذنٍ من أجل دراسة العظام، ولكن قوات المهندسين سلَّمت الهيكل العظمي إلى قبيلة يوماتيلا التي تسكن المكان وتنتمي إلى سكان أمريكا الأصليين كي تعيد دفن الرفات. وعلى وجه الخصوص، خشي العلماء من إجراء الاختبارات؛ إذ إن رجل كينويك من أقدم الأشخاص الذين عُثر عليهم في أمريكا، ولكن تبين أنه لا يحمل شبهًا كبيرًا بالهنود الأمريكان، كما أنه كانت هناك رأس رمح حجري في فخذه! وعلى الجانب الآخر، فقد عارضت قبيلة يوماتيلا إجراء أي دراسات معارضة شديدة، وأصرَّت أن تقاليدهم المتوارثة تقول إن قبيلتهم تعيش في هذه الأرض منذ بداية الخليقة؛ ومن ثَم فإن كل العظام المستخرَجة من هذه الأرض لا بد أنها لأسلافهم، ولا يصح أن تتعرض لضرر من أجل تأريخ أو تحليل جيني. لكن في عام ٢٠٠٢، أكَّد أحد القضاة على حق العلماء في دراسة العظام، وعلى الرغم من دعاوى الاستئناف اللاحقة، فقد كُسِبت المعركة أخيرًا في عام ٢٠٠٥، وبدأت الدراسات التحليلية بجدية (أُنفِقت ملايين الدولارات في هذه القضايا على أتعاب المحاماة؛ فالمحامون دائمًا يكسبون هذه القضايا).

الأفعال الصالحة والطالحة وغير الأخلاقية

حين بدأت دراسة علم الآثار في أوائل سبعينيات القرن العشرين، كان أهل علم الآثار لا يزالون يرون أنفسهم فوق الآخرين، قانعين بوضعهم؛ إذ إن المهتمين به كانوا في المقام الأول من «البلدان المهيمنة»؛ إذ كانوا يُجرون الدراسات بشكل أو بآخر على أي اكتشاف أثري أو في أي مكان أثري كما يروق لهم، ولم تكن ثَمة موانع تقِف أمام حرية عملهم سوى الحروب والمخاطر الطبيعية. ولا أتذكر أني سمعت كلمة عن الأخلاقيات، سواء في محاضراتهم أو في مؤلفاتهم حينذاك. فقد اكتسبوا المعرفة ونشروها وهم يضعون نُصْب أعينهم مجتمع علماء الآثار في المقام الأول (بهدف التقدم الوظيفي أو اكتساب احترام الأقران)، ثم عموم المثقفين، ويأتي في النهاية بقية البشر، هذا إن أَوْلَوهم اعتبارًا.

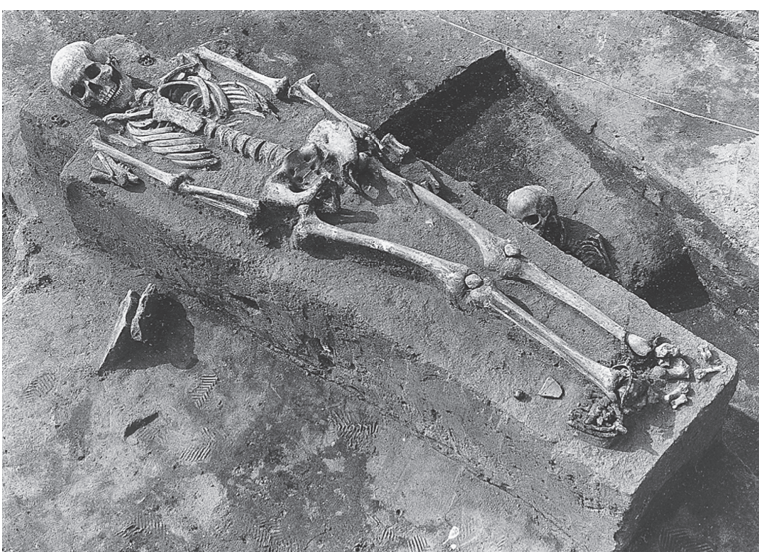

شكل ٨-١: مقبرة تضم هيكلًا عظميًّا بشريًّا كاملًا وبه مهماز مطلي بالذهب، في ميكوليس بجنوب مورافيا.

من المفارقات أن علماء الآثار — كما رأينا — لم يكتفوا بالتعامل مع المصنوعات اليدوية باعتبارها أشخاصًا (الفصل السابع) — مع هجرة صناعات الأدوات الحجرية

أو أساليب صناعة الفخار أو تشابكها — ولكن تعاملوا أيضًا مع رفات الإنسان كما يتعاملون مع المصنوعات اليدوية. ولم يحاول أحدٌ استخراج التراخيص من «الجهات المعنية». حتى العلماء الذين اعتنقوا النهج «التعاطفي» — والذين حاولوا أن يفهموا ما كان في عقل الذين قضوا منذ أمدٍ بعيد — لم يروا تناقضًا في تعاملهم مع المدافن وكأنها مجرد مصادر للمعلومات. وكما قال السير مورتيمر ويلر، وهو من أبرز معتنقي النهج التعاطفي، في لقاء تليفزيوني:

> لست مع من يزعمون أنه لا يجب انتهاك حرمة الميت ... فهذا مجرد تقليد عاطفي. لا؛ إذا نقَّبت عن شخص مدفون حوله أوعيةٌ ومقتنيات أخرى ... فهو ميت. لقد مات منذ زمن بعيد ... وسيبقى ميتًا لزمن طويل ... ولن يحيا مرة أخرى. ولكن حوله كل أنواع المقتنيات، وهي ما تهمنا. فهي تساعدنا على فهم جزء صغير من التاريخ، ومن دونها لما استطعنا فهمه. كذلك تُعيننا في إحياء العالم والتاريخ الذي نعيش فيه. وأعتقد أن هذا شيء ذو قيمة. كما أننا لا نتسبب في أذًى لهؤلاء البؤساء. فحين أموت، يمكنك التنقيب في مقبرتي ١٠ مرات للبحث عما كنت أهتم به ... فلن أطاردك ... كثيرًا.

أو كما تقول المزحة الأثرية القديمة: «إذا كنت سأموت، فلا تفكر إلا في أنني سأمكث هنا مدة طويلة ومعي مرفقات جنائزية من المرحلة ب.»

لكن بحلول نهاية سبعينيات القرن العشرين، بدأت أصوات الاستياء تعلو من الشعوب الأصلية في أمريكا الشمالية وأستراليا، ومن اليهود المتشددين في إسرائيل، بشأن انتهاك حرمة الأموات من الأسلاف ودراسة رفاتهم وعرضِه. وقد شهدت السنوات الخمسة والثلاثون الماضية تغيرًا جذريًّا في الموقف؛ فقد تحولت المسألة التي كانت بين أهل التخصص إلى قضية كبرى ودوَّت أخبارها. فإرجاع المتاحف في أستراليا وأمريكا الشمالية للقِطع الأثرية وعقد المؤتمرات الخاصة بهذه المسألة كشف عن مدى تحوُّل الأخلاقيات وأخطاء الماضي إلى نقطة محورية في علم الآثار.

في كلٍّ من أستراليا وأمريكا الشمالية، تلقَّى السكان الأصليون معاملةً قاسية من الرجل الأبيض الذي لم يقصد أي أذًى لهم، ولم يُرد إلا الاستيلاء على بلادهم! ومع تزايد القوة السياسية للسكان الأصليين على مدار العقود القليلة الماضية، تحوَّل تركيزهم إلى الجرائم التي ارتُكبت في فترة الاستعمار، بما في ذلك الحالات التي لا تُحصى من

انتهاك المواقع المقدسة أو مواقع الدفن، على يد علماء الآثار وعلماء الأنثروبولوجيا. وقد اتُّخذ سكان أستراليا الأصليون والهنود عيناتٍ مختبَرية، وفي النهاية اكتَسبت جميع المواد الخاصة بهم — سواء الرفات البشري أو المصنوعات اليدوية — أهميةً رمزية كبيرة في العديد من المتاحف. ولا يوجد تقليد أصيل واحد وموحَّد حتى داخل البلد الواحد؛ إذ إن لدى السكان الأصليين مواقف واسعة النطاق تجاه الموتى. لكن بما أن قضية الأخلاقيات لا جدال فيها، فقد بدأ علماء الآثار في تصحيح الأخطاء قدر استطاعتهم، وذلك بإرجاع كمية كبيرة من المواد من أجل إعادة دفنها أو حفظها. وكذلك اعتُمدت قواعد الأخلاقيات في العديد من البُلدان، وأصبح لزامًا على علم الآثار أن يحترم ويتشاور مع الأحياء الذين تُدرَس حياة أسلافهم. المستقبل يكمن في المزج بين قبول السكان الأصليين والتفاوض والتوصل إلى تسوية معهم وإشراكهم في جميع مراحل الدراسة. وبالفعل تحسنت علاقات العمل، كما تتزايد أعداد السكان الأصليين الذين أصبحوا يقدِّرون الإسهامات التي يمكن أن يقدمها علم الآثار لتاريخهم وإحياء ثقافتهم.

يبدو أن مرحلة الصراع في هذه القضية انتهت الآن، وقد ترسَّخ كلٌّ من التعاون والاحترام المتبادَل، ولكن تُستثنى من ذلك إسرائيل؛ حيث لا يزال اليهود المتشددون والمتعصبون يعترضون بشدة على الانتهاك المزعوم لحرمات القبور. ويحاوِل المحتجُّون المتشددون إيقاف عمليات التنقيب بإدخال أنفسهم إلى كُهوف الدَّفن، وترويع علماء الآثار في الموقع، ومضايقتهم في مساكنهم عبر الاتصالات الهاتفية ورسائل البريد الإلكتروني. ولذا أمسى معروفًا أن فِرَق التنقيب تعمل ليلًا وترسل فِرَقًا مضلِّلة إلى «عمليات حفرٍ وهمية» كي تشتت الانتباه عن الموقع الحقيقي. وقد آلت الأحزاب السياسية المتشددة على نفسها أن تستمر في الاحتجاج على «انتهاك حرمات قبور الآباء»، وبالفعل اضطُرَّ علماء الآثار إلى الموافقة على إعادة الدفن الفوري لأي رفاتٍ بشري يعثرون عليه في أثناء الحفر، على الرغم من أن هذا يعوق أي دراسة أنثروبولوجية.

الجثامين واللصوص

حريٌّ أن تُعاد على الآذان حقيقة أن عمليات انتهاك حرمات الموتى في الماضي لم ينفذها علماء الآثار كلها، ولم يقتصر الأمر على رفات السكان الأصليين الغرباء عن العلماء، وأن بعض علماء الآثار الأوائل كانت لديهم نوايا حسنة ونبيلة. وما توقفت سرقة المقابر — وتُسمى أحيانًا «ثاني أقدم مهنة في العالم» — عن الانتشار؛ ففي مصر على سبيل المثال،

اضطُرَّ الفراعنة في القرن الثاني قبل الميلاد إلى تعيين لجنة للتحقيق في عمليات نهب المقابر بالجملة في وادي طيبة. ومن بين المقابر العادية المنحوتة من الصخر في مصر، تعرض ٩٩ في المائة منها للنهب في العصور القديمة، ولم يتبقَّ لنا سوى المقابر التي لا تستحق محتوياتها المخاطَرة أو الجهد المبذول. ولم تَسْلم أي مقبرة مَلَكية بالكامل، حتى مقبرة الملك توت.

في أمريكا الشمالية، كانت هذه الظاهرة تحدث في وقت الحج، حيث رأى الحُجاج أن المرفقات الجنائزية الهندية «تتعفن في الأرض من دون سبب وجيه»؛ ومن ثَم كان ردهم — المسجَّل بالفعل في عام ١٦١٠ — هو «تحرير» القطع الأثرية عن طريق سرقة القبور؛ يمكن تبرير سرقة القبور بأنه فعل ديني يساعد في تبديد الخرافات الوثنية. لكنهم علموا أن هنود قبيلة ماساتشوست على سبيل المثال اعتبروا العبث بآثار الموتى سلوكًا بعيدًا كلَّ البعد عن القيم الدينية والإنسانية.

من ناحية أخرى، لا يستحق معظم علماء الآثار أن يُنعَتوا بأنهم عنصريون ولصوص. وفي الحقيقة، ربما لم يكن بعض المنقِّبين الأوائل أفضل من اللصوص كثيرًا، ولكن لا يجدر وضع أهل التخصص اليوم مع لصوص الماضي في سلة واحدة. وعلى أي حال، تُكتشف العديد من المقابر من دون توقُّع وعن طريق الصدفة من خلال عوامل التعرية أو التعمير وما إلى ذلك، ما يؤدي إلى عمليات التنقيب من أجل «إنقاذها» أو «نجدتها».

لا شك أن رفات الإنسان والمقابر تحظى بأهمية كبيرة في تاريخ علم الآثار، ولكنهما لا يزالان يمثلان جزءًا صغيرًا مما يدرسه علماء الآثار. وعدد المواقع الأثرية التي نعرفها اليوم أكثر من كل المواقع التي درسها علماء الآثار الذين عاشوا في العديد من العصور؛ كما أنه يوجد كمٌّ هائل من الحفريات والقطع الأثرية غير المعلَن عنها في المتاحف والمؤسسات. كذلك ليس ثَمة مسوِّغ للتنقيب البحثي اليوم، وقد توقفت أعمال التنقيب إلى حد كبير في العديد من البلدان؛ وكما ذكرنا آنفًا، فإن عمليات التنقيب الإنقاذية هي مصدر معظم اللقاءات الأثرية مع الموتى. ومن ثَم فإن السؤالين الأساسيين اللذين تنبغي إجابتهما هما: كيف ينبغي تنفيذ عمليات الإنقاذ، وما الذي ينبغي فعله مع الرفات غير المكتشَف الذي له حُرمته؟

الاعتراض الأساسي لدى علماء الأنثروبولوجيا على إعادة دفن رفات الهياكل العظمية هو أنه لا يوجد تحليل قاطع النتيجة، ولن تبرح التقنيات الجديدة تتطور، ما يؤدي إلى

استخلاص مزيد من أنواع المعلومات من الرفات. لا شك في صحة هذا الاعتراض (على الرغم من أنه عزاءٌ لا يغني للموتى)، ولكن التقنيات الجديدة إما أنها ستتضمن ميزات خارجية (وفي هذه الحالة فإن القوالب متقنة الصبِّ ستفيد مثل الأصل) وإما ميزات داخلية (مثل المواد الجينية)، وهذه تكفيها عينة صغيرة؛ ومن ثَم فإن أحد الحلول الوسط أن يُحتفظ بسنٍّ أو شظية عظام من كل هيكل عظمي. وعلى أي حال، فدائمًا سيكون هناك آلاف الهياكل العظمية المتاحة لإجراء الدراسات، سواء المحفوظة في المتاحف على مستوى العالم أو التي لا يرغب أحد في إعادة دفنها. وفي المناطق الأكثر حساسية، مثل أمريكا الشمالية وأستراليا، حيث تختلف آراء السكان الأصليين حول هذه القضية اختلافًا كبيرًا، فإن العديد من المجتمعات المحلية تؤيد إجراء بعض التحليلات للرُّفات. كذلك لن تنضب موارد العينات الجديدة؛ إذ إنه لا شك في أن عمليات التنقيب الإنقاذية ستستمر وتتزايد مع اتساع وتيرة التطوير والتعمير. ومن ثَم، فإن إعادة دفن بعض القطع الأثرية قد لا يكون له تأثير سلبي في «العلم» كما قد يبدو للوهلة الأولى.

لا يختلف علم الآثار عن التخصُّصات الأخرى من حيث المسئوليات، وما ينبغي لعلماء الآثار أن يتجاهلوا حقوق الأقليات الأخرى. وتتمثل معضلتهم الأساسية في التوفيق بين احترام الموتى والانتهاك المتعمَّد لحُرمة رفاتهم وتدمير قبورهم ونقل جثثهم ومُرفقاتهم الجنائزية. كذلك في بعض الجوانب، يكون إعادة الدفن مشكلة معقَّدة؛ إذ إنها تنطوي على العديد من العوامل، ومن المؤكد أن التوصل إلى الحل والجدول الزمني والتفاصيل في كل حالة مسألة صعبة. ولكن بوجه عام، فقد صلح علم الآثار؛ ولكن لم تهمه مسألة «فقدان البراءة» في هذه القضية بقدر ما أهمه إدراك الذنب. إذا كانت أخطاء الأطباء غير الأكْفاء تُدفن مع مرضاهم، فعلى علماء الآثار الأكْفاء أن يدفنوا أخطاء الماضي.

في الماضي، عادةً ما كان علماء الآثار يتعاملون مع كل الاعتراضات على بحوثهم باعتبار أنها قائمةٌ على الجهل، وتنتهك بعض الحقوق الأصيلة والراسخة لمتابعة عملهم أينما وكيفما رغبوا. لقد حققوا استقلالهم الذاتي وحمَوه بشراسة؛ إذ استاءوا من الوعظ بشأن أي شيء وسَعَوا إلى ممارسة مهنتهم من دون أن يكون عليهم رقيب. ومع ذلك، فقد اضطُرُّوا الآن إلى قبول أن الجماعات الأخرى لديها مطالبات قانونية، أو مصالح مشروعة، في المواد التي يرغب علماء الآثار في دراستها. فلم يعودوا الحراسَ الوحيدين لآثار الماضي، وبات عملهم يحمل آثارًا اجتماعية كبيرة.

البحث عن المرأة

قيل إن علم الآثار — من دون أي مسوِّغ يُذكر — متحيِّز للذكور (يأخذ صف الذَّكَر) منذ القِدم، وليس على مستوى المصطلحات الأساسية (مثل الرجل الأول) فحسب، بل أيضًا في تأكيده على ما يُعتقد أنها أنشطة ذكورية، وهذا ما تبرهن عليه تقنيات الصيد وأدواته، مثل رءوس السهام والرماح؛ ولذلك قيل إن علم الآثار يجب أن يحارِب التحيز الجنسي في كلٍّ من ممارساته المهنية وتفسيراته. ولعلنا تجاوزنا وجهة النظر التي أوضحها جيه بي دروب في كتابه الصادر عام ١٩١٥ بعنوان «الحفريات الأثرية»، إذ إنه اعترض على إقحام المرأة في عمليات التنقيب؛ لأن الرجل في لحظات التوتر لا ينفِّس عن مشاعره الحقيقية في وجود السيدات! قال في كتابه:

> لم أرَ مطلقًا عاملة تنقيب مدرَّبة في العمل ... وفي بضع عمليات التنقيب المختلطة التي شهدتها ... أعتقد أن [السيدات] قبل بدء التنقيب يكنَّ فاتنات، ولكن في أثناء التنقيب ... يختفي جمالهن ... وبخلاف حالة الزواج، حيث يمكنني أن أتخيل زوجين يتعاونان في عملية حفر صغيرة بسعادة بالغة، أعتقد أن حالات الحفر المختلطة ستُفضي إلى فقدان جو الهدوء، ومن ثَم فقدان الكفاءة ... وستكون هناك لحظات ... يريد المرء أن يعبر فيها عما يدور في خَلَده صراحةً، وهذا مُحال أمام السيدات.

ولكن حتى في الآونة الأخيرة، لم يكن من السهل على المرأة أن تفعل ذلك في مجال علم الآثار المهني. فقد قالت أنا شيبرد:

> أُدرك تمامًا أن معظم الناس يعتبرون المرأة غير مؤهَّلة للعمل الميداني. وفيما يتعلق بـ «المضايقات» و«الصعوبات» في حياة المخيم، أعتقد أن الفكرة مجرد مُزحة ... لكن بسبب هذا الاعتقاد العام، فلا بد أن تُظهر المرأة مؤهلاتٍ خاصة كي تحصل على أي فرصة في علم الآثار. ويبدو أن فرصة الدخول إلى العمل الميداني من خلال العمل في المختبرات عملية أكثر.

لذلك فقد حظِي التركيز الذي مُنح للدراسات الجنسانية بالترحيب، ولا يرجع السبب فحسب إلى محاولات خلقِ وعي أكبر بالحاجة إلى تمديد المساواة بين الجنسين، بحيث تشمل كل مناحي الحياة المعاصرة، بما في ذلك الأوساط الأكاديمية، بل أيضًا إلى المساهمات

الهائلة التي أفهمتنا كيف سيرت المجتمعات القديمة شئونها. ولكن ما أُطلق عليه «علم الآثار الجنساني» كان في حقيقته علم آثار أنثويًّا؛ فالأخوات كنَّ يضعن بصمتهن في علم الآثار.

كان الهدف المعلن هو التركيز على الجنسانية (بمعنى التركيز على الجوانب الاجتماعية والثقافية بدلًا من الفروق بين الجنسين) في السجلات الأثرية. ولكن على الرغم من التأكيدات على خلاف ما يلي، كان واضحًا أن الهدف الأساسي لم يكن تصوير الرجل والمرأة بطرق غير متحيزة جنسيًّا في حقبة ما قبل التاريخ بقدر ما كان محاولة لإظهار المرأة في الماضي. وهذا الهدف يستحق الثناء التام؛ إذ إنه أصبح رائجًا إلى حد كبير لفترة من الزمن مع انتشار الكُتب التي تتحدث عن المرأة في حقبة ما قبل التاريخ أو في مصر القديمة أو العصر الروماني أو عصر الفايكنج أو أي حقبة أخرى. إنه جزء من النهج «النسوي» تجاه الماضي، ويتمثل هدفه في إلقاء ضوء جديد على الجوانب التي ظلت مهملة في السجلات الأثرية، وهذه الظاهرة صاحبَها ازدياد مستمر في المؤتمرات التي تنعقد على مستوى العالم، وعادةً لا تتغير الشخصيات التي تنظمها أو تظهر فيها. وعلى الرغم من وصف هذه الأحداث بأنها تتعلق بـ «الجنسانية في علم الآثار»، فإنها ركَّزت على الجنس الأنثوي، وقد حضرها ثلة من عالمات الآثار، بالإضافة إلى قليل من العلماء الشجعان الذين يطمحون إلى التصويب السياسي. ولذلك، فإن مصطلح gender (الجنسانية) حاق به خطرُ استخدامه بمعنًى غير المقصود، مثلما تغير معنى كلمة gay من السعادة إلى المثلية الجنسية.

في الماضي، اعتاد مؤلفو الكتب والدراسات البحثية (ومعظمهم من الرجال) على استخدام كلمة «رجل» أو «رجال» للإشارة إلى البشرية جمعاء. أما اليوم، فبِتْنا نفهم أن بعض النساء يمقُتن استخدام هاتين الكلمتين (على الرغم من أن العديد من عالمات الآثار ما برحن يستخدمنهما، حتى في أمريكا الشمالية)، ولكنهن لم يمقتنهما بوجه عام بدافع التحيُّز الجنسي العلني. ولا أعلم إن اعتُبر كتاب عالم الآثار الأمريكي روبرت بريدوود الصادر عام ١٩٧٥ بعنوان «الرجال في حقبة ما قبل التاريخ» تحيزًا جنسيًّا. وعلى أقل تقدير، لم تُذكر المرأة على وجه التحديد في هذه الأعمال، وفي معظم الأحوال كانت تُجمع مع الرجل ببساطة في كلمة «الناس». (على سبيل المثال، صدر كتاب عام ١٩٩٥ لعالمة آثار فرنسية شابة بعنوان «الناس في زمن كهف لاسكو»!) فهذه المصطلحات لم تُشِر إلى الذكور وحدهم. لكن ظهرت مجموعة كتب جديدة أسقطت ذِكر جنس الذكور على وجه

شكل ٨-٢

التحديد، وهذا يبدو تحيزًا جنسيًّا متعمَّدًا. والفرق الأساسي بين الموقفين يكمن في الإسقاط غير المقصود والإسقاط المتعمَّد.

صحيح — وجدير بالتأكيد — أن العلماء تعاملوا مع بعض الأنشطة في كثير من الأحيان على أنها ذكورية حصرًا؛ ولا سيما الصيد وصناعة الأدوات الحجرية والفن الصخري، على الرغم من أن الإثنوجرافيا تُبين أن النساء يفعلن هذه الأنشطة في كثير من الأحيان. والعلماء الذكور إما أنهم جهِلوا هذه الحقيقة وإما أنهم اختاروا تجاهلها، والنتيجة نسخة محرَّفة عن الماضي. لكن بصرف النظر عن تعمُّد اجتناب هذه الممارسة، فإن النسويَّات أنفسهن (على الرغم من شكواهن المبررة) يفعلن الأمر نفسه بالضبط عبر تجاهل أو تنحية الأمثلة على الرجال الذين ينفذون أنشطة «نسائية». وعلى أي حال، فمعرفة أن المرأة صنعت أدوات حجرية لن تُفضي إلى رؤًى مفحِمة. الأدوات لا تخبرنا شيئًا عن الجنسانية؛ فحتى إن تمكنت بعض التقنيات المستقبلية من اكتشاف آثار الفيرمونات أو فرمون الكوبلين على أداة حَجَرية، أو بقايا الدم التي يمكن عزوها إلى ذكر أو أنثى،

هذه الاكتشافات لن تخبرنا إلا عن آخر جنس لَمَس الأداة، ولن تكشف أي معلومات عن أي الجنسين صنعها أو اعتاد استخدامها.

أي معرفة مفصَّلة عمَّن أنجز العمل من الجنسين ترِد إلينا من التاريخ الإثني أو الإثنوجرافيا، وليس من علم الآثار. ولا سبيل إلى إعادة إحياء الماضي إلا بالجمع بين ما نرصده في عصرنا الراهن والبيانات الأثرية. ولكن إلى أي مدًى يمكن أن تساعد الإثنوجرافيا في «العثور» على المرأة في الماضي؟

تكمن المشكلة الأساسية في أن الإثنوجرافيا عادةً ما تقدم عددًا من التفسيرات المحتملة للبيانات الأثرية. وقد أشير إلى أنه حتى مقبرة الأنثى الثرية لا تدل بالضرورة على أن صاحبة القبر كان لديها أي سلطة؛ فربما لا تبرز إلا ثروة زوجها (وبالطبع ينطبق الأمر نفسه على مقبرة الذكر الثري).

في الواقع، يصعب أن نرى كيف تُحدَّد أدوار الرجال أو النساء أو حتى الأطفال (إذ بدءوا يظهرون على الساحة الآن!) من الأدلة الضعيفة التي يقدمها التنقيب الأثري. والرسالة المهمة التي يوصلها علم الآثار الجنساني هي أن علم الآثار معنيٌّ بالناس؛ وليس حكرًا على الرجال، ولا على النساء على حد سواء.

جدير بالثناء تمامًا أن نتطلع إلى التخلص تمامًا من التحيز الجنسي المتأصل في كثير من علم الآثار التقليدي، وأن يزيد وعي الناس بوجود المرأة وأهميتها في المجتمعات القديمة، وأن تُطرَح دراسات تركز على المرأة في العصور المختلفة. ولكن إذا انحرفنا بعيدًا عن التحيز الذكوري في الماضي، فإننا نخشى أن ننجرف إلى النقيض الآخر؛ فالعنصرية الجنسية يمكن أن تطول الجنسين كليهما. وكما قال ألبرت كامو ذات مرة: «يبدأ العبد بالمطالبة بالعدالة، وينتهي بالرغبة في أن يكون ملكًا. ولا بد أن يأتي دوره في الهيمنة.»

إن الترياق الشافي للتعصب الذكوري بشأن الماضي هو قيام علم آثار مبني على المساواة والحياد، وليس علم آثار نسويًّا. وإذا كان المؤيدون يؤكدون على أن الهدف ليس مجرد إظهار صورة المرأة في السجلات الأثرية كما يزعمون، فهل ثَمة حاجة إلى «علم الآثار النسوي» على الإطلاق؟ لا يزال أمامنا شوط طويل نقطعه، ولكن الطريق الحقيقي للمُضِي قُدمًا هو علم آثار متوازن وغير متحيز جنسيًّا وليس علم آثار نسويًّ؛ إذ إنه مجرد وجه آخر للعملة التقليدية.

الفصل التاسع

تقديم الماضي إلى الناس

إذا كان علم الآثار يرجو أن يكون له قيمة أو مسوِّغ، فلا بد ألا يقتصر التعريف باكتشافاته على الطلاب وأهل التخصص، بل يجب تعريف عامة الناس به في المقام الأول؛ إذ إنهم مصدر التمويلات ومنبع الرواتب بوجه عام. وعلى الرغم من ذلك، لا نزال نرى أمثلةً من علماء الآثار ممن ينشغلون عن ذلك أو ممن يُتعجَّب من عدم شعورهم بأي ضرورة لإهدار وقتهم في هذه المهمة. شاء الله أن يتولى أستاذٌ نمساوي اسمه كونراد شبيندلر — ليس بفضل خبرته، ولكن بفضل وجوده في المكان والوقت المناسبين — مسئولية دراسة «رجل الثلج» الذي يعود إلى حقبة ما قبل التاريخ وعُثر عليه عام ١٩٩١ (وهو من الاكتشافات التي تُهم رجل الشارع حقًّا)، ولكنه قال: إن «إخبار العامة عن نتائج هذا الاكتشاف ليس من شأنه حقًّا»، وهذا تصريح صاعق وشائن، ولا يصح من وسط أكاديمي يتلقَّى تمويله من عامة الناس.

بطبيعة الحال، تقديم الماضي إلى العالم أجمع مسئولية كبيرة، لا سيما أنه لا سبيل إلى الموضوعية في هذه المهمة. وما برِحنا نعتقد أن الأمر ممكن، وأن المسألة لا تتطلب سوى وضع اكتشافاتنا في صناديق زجاجية وعليها بعض النصوص التوضيحية، أو طرحها في الكتب من أجل إمتاع عامة الناس. لكن في الآونة الأخيرة، حين انغمس علماء الآثار في مراجعة أنفسهم بفضل الاهتمام بالنظريات (الفصل السابع)، وبسبب شن هجوم شامل عليهم (الفصل الثامن)، فقد أدركوا أنه من خلال اختياراتهم للقِطَع الأثرية والموضوعات والنُّهج، فإنهم لا يبرحون يعرضون رسائل تُبرز تحيزاتهم ومعتقداتهم الشخصية، أو تحيزات ومعتقدات مجتمعهم أو دينهم أو سياساتهم أو نظرتهم العامة للعالم؛ إذ إن كل هذا يتأثر بخلفيات علماء الآثار ونشأتهم وتعليمهم ووضعهم الاجتماعي واهتماماتهم

ومُعلميهم وأصدقائهم، وبمعتقداتهم الدينية والسياسية، وبمؤيديهم وخصومهم؛ فكل هذه العوامل تنطبع فيها صورة الماضي، وغالبًا ما تُولى الظهور للأدلة الفعلية.

لنضرب مثالًا واحدًا على كيف أن معتقدات الفرد يمكن أن يكون لها تداعيات كبيرة، ولنتأمل قصة جابرييل دي مورتييه، وهو من عظماء المؤرخين المتخصصين في حقبة ما قبل التاريخ. وُلد جابرييل عام ١٨٢١ لعائلة كاثوليكية عريقة تناصر المَلَكية، وقد أُلحق بالكلية اليسوعية حين بلغ التاسعة. وهذه التجربة أثَّرت في تطور قدراته إلى حد كبير، وزادت في توتره العصبي الكبير بالفعل، وغرست فيه كراهية مدى الحياة تجاه الدين ورجاله؛ كانت العصا والسَّوط لا يزالان يُستخدمان بقوة وحماسة حينذاك! ولما بلغ سن المراهقة، تسببت أنشطته المناصرة للاشتراكية والجمهورية إلى أن يلاحقه أنصار المبادئ الإكليركية وأنصار الملكية على حد سواء، واضطر إلى اللجوء خارج فرنسا. وفي النهاية، تخصص في حقبة ما قبل التاريخ، ولما عاد إلى باريس عام ١٨٦٤، أسَّس صحيفة «ماتريو» (وهي أول صحيفة تتخصص في هذا الموضوع)؛ وقد أسسها في وقت كان البحث في العصور القديمة للإنسان يتسبب في استياء الكنيسة. وقد بات يقاتل من أجل قضية نبيلة وعادلة. لكن لسوء الحظ، كانت شخصيته مروِّعة؛ إذ اتسم بالعدوانية وسوء المِزاج، ولم يتحلَّ بالأمانة الأكاديمية في كثير من الأحيان، ويميل إلى الثأر لشخصه والانتقام من الأشياء التافهة واللغة العنيفة، ولا يتحمل أدنى انتقاد لكلامه. وعادةً ما تمثَّل الهدف من إنشاء صحفه المتنوعة اللاحقة في النَّيل من الصحف المنافسة، والعجيب أنها كانت تنشر كتابات طلابه وحلفائه وتُفرِط في الثناء عليها، وفي الوقت نفسه تتجاهل العلماء الآخرين أو تحط من قَدرهم. كذلك لم يُبالِ بكل النظريات الجديدة لأنه يعتقد أنها إن لم تتفق مع نظرياته فهي خاطئة. وفي النهاية، أفضت طبيعته الجدالية والاستبدادية في الرأي إلى انفضاض الناس من حوله؛ لأنه أغلق عقله واعتقد أنه معصوم من الخطأ.

على الرغم من أن عيوب شخصية دي مورتييه لا تزال موجودة بين رواد علماء الآثار اليوم، فإن كُرهه للكنيسة هو الأهم في هذا المقام؛ لأنها تركت فيه آثارًا عميقة ودائمة.

وعلى الرغم من أنه من أشد المؤيدين لفكرة التطور، فإنه لم يعتبر البتة أن الدين ربما تطور مثل الأدوات الحجرية، أو ربما كان نتاجًا طبيعيًّا للعقل البشري، بل إنه تمسك عاضًّا بنواجذه على اعتقاده بأن الدين عبارة عن خدعة، خدعة ابتكرها الكهنة ونشروها في العصر الحجري الحديث. ولأن الدفن مرتبط عمومًا بوجود أفكار دينية، فقد قضى — مخالفًا لكل الأدلة — أنه لم تكن ثَمة عمليات دفن قبل العصر الحجري الحديث؛ ومن

شكل ٩-١: رسمة كهف ألتاميرا: ثور أمريكي قائم.

ثَم رفض كل حالة دفن من العصر الحجري القديم تُعرَض له رفضًا منهجيًّا بعِلة أنها مندسَّة من عصور لاحقة. وحتى وفاته، ما انفكَّت كتبه الأكثر مبيعًا عن حقبة ما قبل التاريخ تُردِّد الفكرة الغريبة القائلة بأن المجتمعات خلت من أدنى أثر للدِّين على مدار مئات الآلاف من السنين قبل العصر الحجري الحديث.

الأخطر كانت ردة فعله تجاه فن الكهوف في العصر الجليدي؛ ربما كانت تعيد إلى ذاكرته الصور الجدارية في المعابد والكنائس! وسرعان ما بذَرَ شكوكه في وجود هذا الفن، وحين طُرحت البيانات الأولى بشأن الرسوم في سقف كهف ألتاميرا الإسباني عام ١٨٨٠، كان دي مورتييه هو الذي يحذر زملاءه من أنها مكيدة مُلتوية من اليسوعيين المناهضين للتطور من أجل تشويه حقبة ما قبل التاريخ. وردة فعله هذه لم تؤدِّ إلى نبذ الكهف ازدراءً، وتأخير قبول فن الكهوف لمدة ٢٠ سنة فحسب، بل إنها كانت سببًا رئيسيًّا في وفاة سانز دي ساوتولا المبكرة، وهو صاحب الأرض الإسباني الذي صرح بالبيانات الأولى عن كهف ألتاميرا، وما أرعبه أنه أصبح منبوذًا بتهمة السذاجة أو الاحتيال.

وقع خطأ كبير ثانٍ ناجِمٌ عن مناهضة دي مورتييه للإكليريكية بعد ١٠ سنوات من وفاته عام ١٨٩٨. ففي عام ١٩٠٨، عثر ثلاثة قساوسة على الهيكل العظمي لإنسان

النياندرتال الشهير في قرية لا شابيل أُو سانت الفرنسية. وبدلًا من إرسال الهيكل إلى مدرسة الأنثروبولوجيا المناهضة للإكليريكية التي أسسها دي مورتييه، فقد عهدوا به إلى مختبر مارسيلين بول، وقد أسفر هذا القرار عن عواقب وخيمة لنظرتنا إلى إنسان النياندرتال. فقد تأثر بول إلى حد كبير بآراء ألبرت جودري؛ إذ كان أستاذه وراعيه وصديقه، ولم يعتقد أن إنسان النياندرتال يمكن أن يكون من أسلاف الإنسان الحديث؛ ومن هنا نقول: إنه على الرغم من علم بول أن هيكل لا شابيل كان لرجل عجوز يُظهر عموده الفقري أنه كان مصابًا بالتهاب العظم والمفاصل، فإنه ادعى أن الرفات يثبت أن إنسان النياندرتال لم يستطع المشي منتصبًا، بل كان مخلوقًا يمشي متثاقلًا ومحني الظهر. وبسبب هيمنته على المجال، لم يُفحَص الهيكل العظمي مرة أخرى بالتفصيل حتى خمسينيات القرن العشرين، واعتُقد أن إعادة بنائه للهيكل أمر حاسم لدرجة أن العديد من بقايا إنسان النياندرتال الأخرى لم يُعَد بناؤها ولم تُفحص بأي تفصيل، وهذا يصور مخاطر الاعتماد الزائد على آراء الشخصيات المؤثرة؛ وعلى الرغم من فهم هذه النزعة، فإنها متفشية في كل جوانب مجال علم الآثار حتى يومنا هذا.

لذا، يتكرَّر ربط الفكرة الراسخة عن ماضي البشر — ونقصد هنا فكرة أن إنسان النياندرتال كان وحشًا دون البشر — بالتفاعلات الناجمة عن التحالفات والعداءات الشخصية. ومن ثَم لا تنفصل البحوث — وكذلك تفسير الماضي وتمثيله — عن الخلفيات الاجتماعية ولا عن مجموعة الباحثين. ولا ينبغي أن يغيب عنا البتة من أين «يأتي» العلماء وإلى أين يحاولون «الوصول» في عملهم وفي حياتهم المهنية كي يكون لدينا فهم كامل عن نوعية «القصص المقبولة» التي يختارون نسجها عن الماضي.

لكن من الذي يقرر إذَن النسخة التي تقدَّم إلى عامة الناس عن الماضي؟ في المتاحف الأقدم في أوروبا، لا تزال الآراء والتفسيرات التي سادت في القرن التاسع عشر موجودة على العديد من القِطَع الأثرية المعروضة، لكن معظم القطع الأثرية المعروضة في الصين لا تزال تعتمد اعتمادًا كبيرًا على كتابات ماركس وإنجلز. ولكن بُذلت جهود كبيرة في الآونة الأخيرة — لا سيما في الغرب — لاستئصال أسوأ المفاهيم الاستعمارية والعنصرية والجنسية المسبقة. وفي كثير من الأحيان، لا تُعرض القطع الأثرية بشكل منفصل، باعتبارها أعمالًا فنية، بل إنها تُعرض في سياقها التاريخي أو في معروضات تثقيفية تُبيِّن وظيفتها. وفي السنوات الثلاثين الماضية، صارت دراسات المتاحف مجالًا مهمًّا في حد ذاته، وبات واضحًا تعقيد المسائل المعنِية باختيار المواد الأثرية وعرضها للجمهور.

يجب أن يكون هناك توازن دقيق بين التعليم والترفيه؛ فلا بد من الارتقاء بالمعروضات الأثرية المملة التي يعلوها التراب في المتاحف، ولكن لا بد من تجنُّب النقيض الآخر، وهو الإفراط في التبسيط وإزالة العناصر المشينة، بحيث يبدو الماضي وكأنه للتسلية. الغالبية العظمى من المؤلفات عن علم الآثار لا تزال تتكون من مجلدات دسمة ومليئة بالمصطلحات والكلام الخاوي من المعنى، ولكن تتزايد الحاجة إلى ما أُطلق عليه «المواد التثقيفية العالية»؛ أي تأليف أعمال سهلة الفهم وممتعة، بحيث تجذب الإنسان العادي أو المبتدئ من دون فقدان المحتوى أو الدقة. قد ينخدع المرء ويظن أن تأليف هذه الكتب مهمة سهلة، ولكنه صعب إلى أبعد الحدود في الحقيقة، ويسرني أن أقول ذلك، وإلا لأصبحت من دون عمل. وللأسف، فإن أفراد الجمهور السُّذَّج (وهؤلاء ما أكثرهم إذ يحكمون على قيمة الكتاب من أرقام مبيعاته) دائمًا ما يقعون فريسة لهذه الكتب المضلِّلة أو الاحتيالية الصريحة؛ إذ إنها تنسج لهم قصصًا تافهة عن رواد الفضاء القدماء والحضارات الفائقة التقدم وما إلى ذلك.

تزيد مشاركات وسائل الإعلام الأخرى في هذا العمل. فالعديد من البلدان في أوروبا وكذلك في الولايات المتحدة تنتج مجلات ملوَّنة ذات ورق لامع ورائعة لعموم الناس (ولكن لا يزال يطلع عليها الطلاب والمتخصصون) متخصصة في علم الآثار على مستوى العالم. يوجد في بريطانيا الآن مجلتان رائعتان متخصصتان في علم آثار بريطانيا، بالإضافة إلى مجلة تتناول الموضوع على مستوى العالم، ومع الأسف مجلة أخرى موجَّهة إلى تجار القطع الأثرية على وجه التحديد.

كذلك أصبحت الأعمال التي يجري إنتاجها لعرضها على شاشة التليفزيون وأقراص الفيديو الرقمية وسيلة رئيسية لتقديم الماضي إلى عموم الناس، وما برحت تحقق أرقام مشاهدات مرتفعة، حتى حين تكون البرامج سيئة. وأفضل البرامج هي التي لا تكتفي بنقل المشاهد إلى الأماكن التي قد لا يتحمل تكاليف زيارتها أو التي لا يمكنه الوصول إليها مطلقًا، بل التي تقدَّم له أيضًا الأدلة بطريقة متوازنة ورصينة وحماسية أيضًا، وتتجنب الحيل وحالات الترويج غير المتزنة للنظريات الملهبة لاهتمام العامة.

وبالمثل، أثبت الإنترنت أنه مصدر قيِّم للمعلومات ووسيلة للتواصل الفوري، ولكن للأسف فإنه يحوي كمًّا هائلًا من النظريات الخاوية والمعتوهة التي ينشرها المخبولون والمتعصبون من كل الأطياف. وبما أن كثيرًا من هذه النظريات تُطرَح في صفحات إلكترونية ذات تصميم جميل، بحيث يوحي مظهرها بأنها موثوقة، فقد يعتقد الغافلون

والسُّذَّج حتمًا أن الجُناة يعرفون ما يتحدثون عنه ويقدمون الحقيقة! وبالطريقة نفسها، تنتشر الأخطاء الفعلية والمزاعم الاحتيالية حول العالم بضغطة زر واحدة، ولا يمكن إزالتها مطلقًا، وهذا كابوس حقيقي يؤرق الذين يسعون إلى تحرِّي الدقة والصدق في إحياء الماضي، ولا يليق بهيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي) وغيرها من المؤسسات الإعلامية أن تقبل هذه الاحتيالات، التي تبدو أنها ذات قيمة في ظاهرها، من دون طلب مشورة أهل التخصص لئلَّا تساعد في نشر هذا الهراء الخبيث. فمنذ عقود، كان يعمل لدى هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي) موظفون متخصصون في مجالات مختلفة، وقد اكتسبوا معلومات هائلة في علم الآثار — على سبيل المثال — من إعداد مسلسل مثل «كرونيكل» (وقائع)، ولكن كل هؤلاء الخبراء العاملين لدى الهيئة قد رحلوا منذ فترة طويلة، ويتجلى رحيلهم أكثر في غفلتهم حين يقبلون المزاعم المشكوك في صحتها. ومؤخرًا، أحسَّ محرر إحدى المجلات البريطانية المعنية بعلم الآثار بالذهول عندما اتصلت به نشرة أخبار الساعة العاشرة صباحًا في قناة هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي)، تسأله عن رأيه في اكتشاف سفينة نوح! لقد افترض أن هذه مزحة، ولكن لم يكن ذلك هو الأول من أبريل، وكان مذيع قناة هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي) في حيرة من أمره لأنه لم يأخذ هذا القول على محمَل الجد!

كارثة أخرى جديدة وهي قدرة القرصنة الإلكترونية على سرقة جهود الآخرين — سواء أكانت نصوصًا أو قوائم مراجع أو صورًا — ونشرها على مواقع الويب من دون أي إذن. وأنا شخصيًّا وقعت فريسةً لهذا الوباء؛ فمن الإحباط أن يرى المرء عمله «مقترَضًا» (وغالبًا ما يساء فهمه أو يحرَّف) على يدِ أحمق قليل العلم له أجندة خاصة أو نظرية عظيمة الخلل ويروج لها!

غالبًا ما يعتبر المنقبون عموم الناس وكأنهم عوائق لعملهم، ولكن الأفطنَ فيهم يدرك الامتيازات المالية، وغيرها من الامتيازات التي يمكن أن يكسبها من تحريك اهتمام رجل الشارع. ولذلك ينظمون أيامًا مفتوحة ونشرات تثقيفية وتغطية إعلامية حيثما أمكن، ورحلات مدفوعة في بعض الأحيان. ففي اليابان، تقدَّم عروض في الموقع بمجرد الانتهاء من الحَفر، وتُعطى التفاصيل للصحافة قبل الانتهاء بيوم، بحيث يستطيع الناس القراءة عن الموضوع في الصحيفة المحلية الصباحية قبل حضور العرض التقديمي، ودائمًا ما يحضُرون بأعداد غفيرة.

من الواضح أن الناس متعطِّشة للمعرفة عن علم الآثار، وقد اتخذت شكلًا من أشكال الترفيه منذ حالات الحَفر الأولى لتلال الدفن (الفصل الأول) والكشف عن المومياوات

المصرية أمام الناس في القرن التاسع عشر. والآن، أصبح للترفيه شكل وهدف يطغى عليهما الجانبان العلمي والتعليمي، ولكن لا مناص من أن يتنافس علم الآثار مع عوامل الجذب المنافسة الأخرى إذا كنا نريد له أن يزدهر أو أن يحيا؛ إن نضب التمويل من الناس، فسينضب جزء كبير من علم الآثار.

إننا في عصر السياحة الجماعية و«صناعة التراث»، وأكثر موقع يقدَّم على أنه مثال يجمع بين ترفيه الناس وتثقيفهم هو مركز جورفيك بمدينة يورك الواقعة في شمال إنجلترا. لم يكتفِ المنقبون بتشجيع الناس على زيارة الموقع في أثناء الحفر واستخراج بقايا الفايكنج في أواخر سبعينيات القرن العشرين (بلغ إجمالي الزوار نصف مليون زائر على مدار خمس سنوات)، بل إنهم أعادوا بناء جزء من الموقع، وأكملوه بالشوارع والمنازل على اعتبار أنه سيكون قلبَ متحف جديد، وقد بات هذا المتحف من أشهر المتاحف التي أقيمت على أنقاض موقع أثري وأنجحها ماليًّا على مستوى العالم. ويقع المركز تحت مجمع تسوُّق عصري. وفيه تعود السيارات الإلكترونية بالزوَّار إلى «الماضي»؛ إذ يمرون بالمنازل المسقوفة بالقش والوِرَش والسُّفُن. وبداخل هذه الأبنية وحولها توجد شخصيات من الألياف الزجاجية وبأحجام طبيعية وعليهم ثياب تحاكي فترة الفايكنج، وفي الوقت نفسه توفر التسجيلات الصوتية الأجواء الصاخبة للشوارع المزدحِمة؛ حيث يتحدث الأطفال والكبار باللغة الاسكندنافية القديمة الأصيلة، وكذلك تفوح الروائح المناسبة لتلك الفترة، مثل الروائح في الأماكن القريبة من حظائر الخنازير والمراحيض (لا سيما الروائح المعروفة بين شباب الزوَّار، مثل البطاقات التي تعمَل بتقنية الخدش والشم). بعد ذلك، تمرُّ السيارات من موقع يُحاكي عملية التنقيب، ويصل الزوار إلى معروضات الاكتشافات الأثرية ومتجر هدايا عبر محاكاة لمختبر يوضح طريقة صنع المصنوعات اليدوية والبقايا العضوية قيد الدراسة.

لذا، يحظى المركز بأهمية كبرى في تقديم موقع بعينه وفترة بعينها للناس، وكذلك في توضيح نتائج الاكتشاف الأثري وتفسيره بصورة تخيلية جديدة. ومن الناحية المالية، دعم المركز عمليات التنقيب الجديدة في مدينة يورك، وقد أدى نجاحه — بواقع ثمانية ملايين زائر في أول ١٠ سنوات منذ افتتاحه عام ١٩٨٤، و١٥ مليون زائر بحلول عام ٢٠١٧ — إلى إنشاء مواقع عرض مماثلة في المدن البريطانية الأخرى وفي البلدان الأخرى. افتُتح الموقع المطابق لكهف لاسكو بفرنسا (وهذه ضرورة لأن الموقع الأصلي لم يعُد وجهة للسياحة الجماعية) عام ١٩٨٣، وهو الآخر يستقبل مئات الآلاف من الزوار كل عام؛ ولكن على الرغم من رسوم الدخول الباهظة، فإنه لا يُسهم في البحوث الأثرية المحلية.

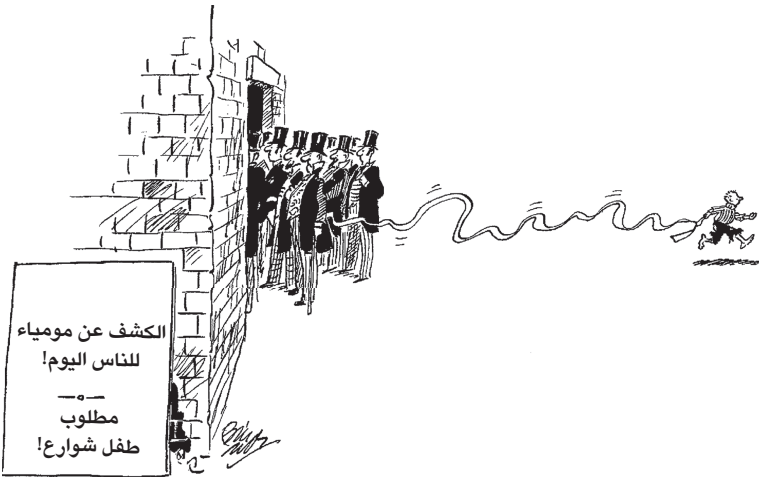

شكل ٩-٢

يتمثل التحدي الأساسي لمجال التراث في كيفية الموازنة بين المتطلبات الأساسية للحفاظ على التراث والحق الأساسي للناس في رؤية تراثهم الخاص وزيارته؛ بعبارة أخرى، كيفية قياس التأثيرات المعروفة أو المحتملة للسياحة الجماعية في المواقع الأثرية. ومع زيادة شهرة علم الآثار، ومع ظهور وسائل السفر الجوي المريحة، أصبح عددٌ من المدن أو المناطق أو حتى بلدان كاملة — مثل الصين أو بيرو أو المكسيك أو مصر — تعتمد اعتمادًا كبيرًا على السياحة الأثرية. وطبقًا للأمم المتحدة، أصبحت السياحة أهم نشاط على مستوى العالم بحلول عام ٢٠٠٠؛ إذ إنها تحتكر ٦ في المائة من كل الوظائف. هذا التوجه صحي في بعض الجوانب؛ إذ إن الوعي العام والاستمتاع بعلم الآثار لا غنى عنهما من أجل بقاء هذا التخصص وتطوره في هذه الأوقات التي تتسم بالضوائق المالية، ولكن ثَمة عواقب مؤسفة. وأُولى هذه العواقب هي مخاطر التلف والتهالك، كما ذكرنا من قبل، ولكن من ضمنها أيضًا حقيقة أن المواقع، أو حتى السياح أنفسهم، يمكن أن تستهدفهم الأعمال الإرهابية، كما حدث في مرتفعات بيرو ووادي النيل؛ فقد ثبت أنه من السهل ترويع عدد كبير من السياح بهذه الطريقة؛ ومن ثَم يتأثر اقتصاد البلاد كثيرًا من دون أدنى جهد. على سبيل المثال، الهجمات التي شنها المتعصبون الإسلاميون عام ١٩٩٥ كلفت الحكومة المصرية مليارَي دولار على الأقل في صورة خسارة عوائد سياحية، والسياحة من المصادر

الأساسية للعُملة الصعبة لعلاج اقتصاد البلاد المعتل؛ وكذلك ذَبح ٥٨ سائح في الأقصر عام ١٩٩٧ أفقد مصر ٧٠٠ مليون دولار أخرى. كذلك كان لثورات الربيع العربي التي اندلعت عام ٢٠١١ تأثير سلبي في السياحة لدى مصر، ولم تتوقف التأثيرات عند عمليات السطو التي تعرض لها المتحف المصري بالقاهرة والمواقع الأثرية؛ بل إنه من ضمنها إثارة الشكوك — أو ربما التأخير إلى أجل غير مُسمًّى — حول مشروعات ضخمة مثل المتحف الوطني الجديد على هضبة الجيزة، بالإضافة إلى خطة إغلاق معظم المقابر الشهيرة في وادي الملوك (توت عنخ آمون، سيتي الأول، نفرتاري، وغيرهم) وإعداد نسخ مطابقة منها كي يزورها السياح. كذلك يمكن أن تكون السياسة رفيقًا مزعجًا لعلم الآثار، وقد شهدنا هذا جليًّا في حالات إساءة استخدام علم الآثار على يد ستالين في روسيا وهتلر في ألمانيا.

ولكن ربما في بعض الأحيان تتعامل السياسة مع علم الآثار بطريقة دمِثة. على سبيل المثال، كثيرًا ما روى تشارلز ماكبيرني — مدرس تاريخ العصر الحجري القديم بجامعة كامبردج — كيف أنه لما كان ضابطًا في الحرب الأخيرة أمر جنودَه أن يقيموا معسكرًا بجوار وادٍ في شمال أفريقيا، وقد اختار هذا الوادي لأن به مصاطب من عصر البلايستوسين. وبينما جنوده عاكفون على عملهم، انطلق بطول هذه المصاطب يبحث عن أدواتٍ من العصر الحجري القديم. وبعد فترة، رفع بصره ورأى على المصاطب في الجانب الآخر من الوادي ضابطًا ألمانيًّا يفعل الشيء نفسه. «لوَّح أحدنا إلى الآخر، وواصلنا عملنا!»

في الحقيقة، علم الآثار له عدة أوجه، وله العديد من الأدوار المهمة كما رأينا بين صفحات هذا الكتاب، ولكن يمكن أن تُسيء استغلالَه قلةٌ معدومة الضمير تسعى إلى الوصول إلى أهدافها الخاصة، وكذلك الأمر مع غالبية العلماء الحقيقيين ممن لا يريدون سوى دراسة الماضي ونقل المعلومات إلى مَن يرغبون معرفتها من الناس. ولذا، لا يبقى لنا إلا أن نتطلع ونتدبر في غد علم الآثار.

الفصل العاشر

مستقبل الماضي

سيظل المؤرخون يلاحقون ظلالًا أبد الدهر، والمؤلم أنهم يدركون عدم استطاعتهم إحياء عالم الموتى بصورته الكاملة.

(سايمون شاما)

على الرغم من أن علم الآثار «شيء من الماضي»، فإنه لا يزال تخصصًا حديث العهد، والعديد من تقنياته ونظرياته حديثة التطور، وسيستمر في الازدهار والتغير مع نموه ونضجه. ويرجع هذا النضج جزئيًّا إلى الاكتشافات الجديدة والمهمة؛ ولا يقتصر الأمر على الاكتشافات المذهلة التي تجذب الصحف الشعبية، بل يشمل الاكتشافات ذات المساهمات المتواضعة في رؤيتنا للماضي، مثل معرفة تاريخ أسبق لحدث أو ظاهرة ثقافية في العصور الأولى. تنبع بهجة علم الآثار ولذته من هذه الاكتشافات الجديدة، ومن ثروة الكنوز والمعلومات المتراكِمة بالفعل، وكذلك من معرفتنا أن الصورة التي أخذناها عن الماضي ستظل تتغير ولن تكتمل مطلقًا. على سبيل المثال، نُشرت ثلاثة إصدارات في مدة ١٢ عامًا فقط لأفضل كتاب يحتوي على معلومات عن حقبة ما قبل التاريخ في أستراليا، وهو كتاب «علم الآثار في الزمن الأسطوري» لجوزفين فلاد، ولا يكاد الإصدار الأخير يشبه الإصدار الأول، ومن هنا يتبين مقدار التغيير وسرعته في معرفتنا بحقبة ما قبل التاريخ الخاصة بهذا البلد. كذلك لا تبرح الموضوعات الأخرى — مثل أصل الإنسان، أو حتى الإنسان المتحضر — تتغير بسرعة؛ لدرجة أن المعلومات التي تحملها الكتب تَقدُم من قبل أن تُنشر.

الأرجح أنه ستخرج معظم الاكتشافات الكبرى في المستقبل إلى النور عن طريق الصدفة، مثل رجل الثلج أو كهف شوفيه؛ لأنه سيكون هناك بالتأكيد انخفاض مطرد

في عمليات التنقيب البحثي (وهذا على عكس عمليات التنقيب «الإنقاذية» التي ستستمر في الزيادة مع تزايد وتيرة التعمير والتطوير الحضري). ومن أسباب هذا الانخفاض أن التقنيات الحديثة، التي لم تُتصور بعد ستزيد، قدرتنا على «رؤية» ما في باطن الأرض من دون الحاجة إلى حفرها (وهذه مفيدة لنا؛ إذ إن حفر الأرض عن طريق التنقيب الحذِر والمضني عمليةٌ مكلفة من حيث الوقت والمال)؛ وسبب آخر وهو ضرورة دراسة المواد الأثرية والبقايا الهائلة التي لم تُحلل ولم تُنشر على مستوى العالم، ما أدى إلى اكتظاظ مخازن المتاحف بها، أو ضرورة طرح أسئلة جديدة عن المواد التي دُرست بالفعل؛ وسبب ثالث وهو الحاجة المتزايدة والمُلحَّة للحفاظ على المواد المكتشفة بالفعل، بدلًا من التنقيب عن مواقع جديدة في حين أن بقاءها في باطن الأرض أمان لها.

في الحقيقة، سيصبح الحفاظ على هذه الآثار من المحاور الأساسية في علم الآثار كليًّا؛ إذ إننا نحاول الحفاظ على الكميات الهائلة من المواقع والهياكل والمصنوعات اليدوية، وملايين الصور المعروفة للفن الصخري على مستوى العالم. تتعرض العديد من المواقع الأكثر شهرة بالفعل لتهديد هائل؛ تمثال أبو الهول بسبب التقلبات المناخية وكذلك تسرب مياه الصرف الصحي من الأحياء الفقيرة القريبة، ومقبرة توت عنخ آمون من التصدُّع والأضرار الناجمة عن فيضانات عام ١٩٩٤، وموهينجودارو في باكستان من عوامل التعرية والتآكل المِلحي، وأكروبوليس في أثينا من التلوث والتغير المناخي الذي تسبب في نمو فُطرٍ أسود عميق داخل الرخام، والقناة الرومانية في سيجوفيا بإسبانيا من تلوث السيارات والطقس القاسي وحتى فضلات الطيور! ففي عام ٢٠١٠ وحده، في إيطاليا، انهارت أجزاء من سقف قصر نيرون الذهبي، والجص من سقف الكولوسيوم، وجزء كبير من بيت المصارعين في بومبي، بسبب الأمطار الغزيرة على ما يبدو. تبذل فرق مخصصة من معهد جيتي للحفاظ على الآثار بكاليفورنيا، أو الصندوق العالمي للآثار، جهودًا هائلة للحفاظ على المواقع والآثار من جميع العصور وجميع أنحاء العالم وتعزيزها، ولكن حتى موارد جيتي، التي لا حدود لها على ما يبدو، لا تعدو كونها قطرة في محيط عندما يفكر المرء في المبلغ الهائل من المال المطلوب لإنقاذ كل شيء. ومن ثَم سنُضطر إلى اتخاذ قرارات صعبة (ليس في اختيار الاكتشافات التي ينبغي الحفاظ عليها فحسب، بل في تقرير بذل الأموال من أجل علم الآثار من عدمه، بدلًا من بذلها في سبيل قضايا قد تكون في نظر البعض أكثر استحقاقًا وإلحاحًا)، وكذلك لا تزال الجهود الكبيرة مستمرة في تسجيل العناصر الأكثر عرضة للتهديدات، مثل الفن الصخري والنقوش، وما إلى ذلك.

وفي الوقت نفسه، سيكون للتكنولوجيا الحديثة دور ذو أهمية متزايدة؛ على سبيل المثال، في تسجيل الفنون الصخرية، يسهِّل نظام تحديد المواقع العالمي تحديد المواقع التي كان من الصعب جدًّا العثور عليها حتى الآن في الصحاري أو مناطق الغابات. إضافة إلى ذلك، توافرت تقنيات جديدة غير تدخلية لتسجيل النقوش المحفورة في الصخر والنقوش الموجودة في نماذج ثلاثية الأبعاد؛ والتقنية الأكثر تكلفة هي المسح الليزري، الذي يؤدي في بعض الأحيان إلى اكتشافات جديدة؛ على سبيل المثال، في عام ٢٠٠٣، وبعد ٥٠ عامًا من رصد نقوش منحوتة على خنجر وبعض الفئوس للمرة الأولى على بعض الحجارة القائمة في ستونهنج، كشف المسح الليزري عن نقوش صخرية شديدة التآكل لم تُكتشف من قبل ولا يمكن رؤيتها بالعين المجردة. ثَمة طريقة بديلة أرخص، وتتسم أيضًا بالكفاءة وتستخدم جهازًا محمولًا، وهي طريقة النَّمذجة الثلاثية الأبعاد من الصور الفوتوغرافية؛ إذ إنها تستخدم برنامجًا تِجاريًّا مثل برنامج «فوتومودِلر».

مع ذلك، فإن معظم التطورات البارزة أُحرزت من خلال المعالجة الرقمية وتحسين اللوحات المرسومة باستخدام الكمبيوتر، حيث يمكن اكتشاف واستخراج صور أصبحت باهتة، لدرجة أن العين المجردة لا تكاد تراها؛ على سبيل المثال، أمكن التعرف على ١٦ لوحة مرسومة في موقع يُسمى كابادول كولا بشمال أستراليا، لكن أدى استخدام تقنيات تكثيف الألوان على الصور الفوتوغرافية الرقمية إلى اكتشاف ٢٨ صورة أخرى. وأُطلق على تقنية من التقنيات الحديثة لاكتشاف اللوحات المرسومة الباهتة اسم «دي سترتش» (DStretch)؛ إذ إن حرف D يعبر عن فك الترابط، وكلمة stretch تعبر عن تمديد تباين الألوان، وبذلك يزيد الكمبيوتر من وضوح الفروق الدقيقة بين الألوان، ومن ثَم لا تُسجَّل الصور الباهتة أو غير المرئية فحسب، بل يمكن الحصول على أدلة لترتيب التراكُب.

في العديد من الجوانب الأخرى للدراسات الأثرية، طوَّر نظام تحديد المواقع قدرتنا على العثور على المواقع وتسجيلها، كما أحدث الازدياد السريع في استخدام التصوير بالأقمار الصناعية (بدلًا من التصوير الجوي) — ولا سيما الأدوات مثل «جوجل إيرث» — ثورة في اكتشاف العديد من أنواع المواقع. فقد اكتُشف الكهف الذي عُثر فيه على بقايا أُحفورية لأشباه الإنسان «جنس القرد الجنوبي سيديبا» عام ٢٠٠٨ باستخدام برنامج «جوجل إيرث»؛ ما يشير إلى أبرز الطبقات الأحفورية الواعدة في المنطقة، وفي الوقت نفسه يستخدمه العلماء لاكتشاف عدد لا يُحصى من المواقع، لا سيما في المناطق التي لا يستطيعون الوصول إليها بسبب الصراعات أو السياسات.

ومع ذلك، فإن التهديدات الرئيسية للمواقع والمواد الأثرية لا تأتي كثيرًا من التدهور الطبيعي أو الإهمال، بل من الأضرار التي يسببها البشر بطُرق متنوعة. وكما رأينا بالفعل (الفصل التاسع)، فإن الزيادة المطردة لشهرة علم الآثار لها نتائج سلبية، والسياحة الجماعية تحمل معها مخاطر «حب علم الآثار حتى الهلاك» بسبب الأضرار المتزايدة التي تلحق بالمواقع؛ لأنه تطأ عليها ملايين الأقدام وتتنفس فيها ملايين الرئات، فضلًا عن الأضرار (ولحسن الحظ أنها نادرة) التي يسببها المخربون عمدًا، أو الحروب أو المناورات ولكن بشكل أقل عمدًا؛ على سبيل المثال، أحدث الجيش أضرارًا جسيمة في أثناء التدريبات في سهل ساليسبري وفي جنوب فرنسا. ومع تراجُع خطر الحرب الباردة، أُطلق العنان للدبابات والبارود على تلال الدفن الخاصة بحقبة ما قبل التاريخ.

لكن يوجد عامل آخر أشد تدميرًا بكثير، وقد ظل معنا لآلاف السنين (مثل سرقة المقابر في مصر القديمة، الفصل السابع)، ولكنه تفشَّى في السنوات الأخيرة؛ ألا وهو نهب المواقع الأثرية ممن يحفرون بحثًا عن المكاسب المالية؛ إذ إنهم لا يبحثون إلا عن القطع الأثرية التي يمكن بيعها ويدمرون أي شيء آخر بشكل عام. والحرب يمكن أن تساعد هؤلاء إلى حد بعيد، كما هي الحال في لبنان، على سبيل المثال، حيث أدت الأعمال العدائية إلى نهب آثار البلاد وشحن آلاف الأطنان من القِطَع الأثرية سرًّا على يد الميليشيات والتجار المعدومي الضمير. كذلك، سرعان ما تدهورت حالة التماثيل الضخمة في معبد أنجور وات بكمبوديا في فترة الصراعات التي شهدتها البلاد، ويرجع السبب إلى انقطاع الترميم فترة طويلة، وكذلك إلى عمليات النَّهب الواسعة النطاق في فترة حكم بول بوت.

بعد سقوط بغداد عام ٢٠٠٣، تعرَّض المتحف الوطني بالعراق إلى عمليات نهب بكثافة، وسُرقت العديد من القِطَع الأثرية، ولم يُستعَد منها إلا عدد قليل. وفي ثورات الربيع العربي عام ٢٠١١، وقعت حوادث سرقة من المتحف المصري بالقاهرة، ولكن لحسن الحظ أن الشعب المصري حمَى المبنى ضد المزيد من الهجمات. وبطبيعة الحال، تكرر تعرُّض المتحف الأثري الوطني الأفغاني، الواقع خارج كابول، للقصف والنهب في تسعينيات القرن العشرين عندما كانت الفصائل تتقاتل عليه في ذلك البلد. ويُعتقد أنه سُرق ٧٠ في المائة من أصل ١٠٠ ألف قطعة معروضة، وقد تعرَّض المبنى إلى تدمير بالغ بنيران الصواريخ. واضح أن الحرب والثقافة لا يجتمعان.

أكثر ما يبعث على الحزن في هذه السرقات هو فقدان المعلومات حين تُقتطع هذه الاكتشافات من سياقها الأصلي. قد تحلو القطع الأثرية في أعيننا، ولكن المعلومات التي

شكل ١٠-١

كان من الممكن أن تقدمها لا تقدَّر بثمن. الأمر أشبه بالفرق بين رؤية صور فوتوغرافية لأشخاص مجهولين من القرن الماضي لا تحمل أي تعليق توضيحي، ورؤية صور تحمل نصوصًا توضيحية عن تاريخ الصورة وموضوعها، وما إلى ذلك. ربما تجذب الصورة الأولى العين في بعض الأحيان أو تراها العين جميلة أو ممتعة (مثل الأزياء التي يرتديها صاحب الصورة)، ولكن المرء يحصل على المزيد بلا حدود من الصور التي تحمل نصوصًا توضيحية. وهذا ما لا يفهمه جامعو القِطَع الأثرية؛ إنهم يعرفون سعر كل قطعة ولكنهم لا يعرفون قيمتها.

من المؤكد أن اللصوص الحقيقيين لهذه الآثار هم جامعوها في عصرنا الحاضر. لا يسعُ المرءَ أن يلوم الفقراء البؤساء في بلدان العالم الثالث على تنقيبهم عن الأشياء «الثمينة» في باطن الأرض؛ إذ إنهم يعلمون أنهم سيكسبون مزيدًا من المال من أجل

إطعام عائلاتهم حين يبيعون قطعة أثرية قيِّمة واحدة أكثر مما يكسبون من العمل الشاق. لكن في البلدان الأخرى مثل بريطانيا وأمريكا، توجد عصابات لصوص احترافية وجيدة التنظيم، ولا تمتلك أدوات عالية التقنية فحسب، بل إنها جيدة التسليح. وإذا لم توجد أسواق مستعدة وأُغلقت الأبواب بفاعلية، كما حدث في تجارة العاج منذ بضع سنوات، ستنخفض الأسعار وتختفي الأسواق وربما تنهار هذه التجارة. لكن لا تزال هذه الأسواق مزدهرة على الرغم من القوانين الصارمة التي تطبقها بعض البلدان. في الصين على سبيل المثال، قد يُعدَم اللصوص بجريرة سرقة المقابر القديمة وتهريب القِطَع الأثرية إلى خارج البلاد، على الرغم من أن كميات كبيرة من هذه القطع تهرَّب إلى هونج كونج بوتيرة تزيد سرعتها بصورة كبيرة، ومنها إلى جامعي الآثار حول العالم؛ على سبيل المثال، نهب اللصوص ٤٠ ألف مقبرة قديمة في الصين في العامين ١٩٨٩ و١٩٩٠ وحدهما، وفي النصف الأول من عام ١٩٩٤، صادر مسئولو الجمارك ٥٫٥ ملايين دولار أمريكي عن قيمة قِطَع أثرية مهربة في هونج كونج، أي أربعة أضعاف إجمالي عام ١٩٩٣ بأكمله، ومع ذلك لم يصادَر سوى جزء صغير من المسروقات. وفي عام ١٩٩٧، صادرت الجمارك الصينية أكثر من ١١٢٠٠ قطعة أثرية مهرَّبة، ونحو ٦٠٠٠ قطعة في النصف الأول من عام ١٩٩٨؛ وعلى الجانب الآخر، استُردَّت ٣٠٠٠ قطعة أثرية في عام ١٩٩٨ من القطع التي اكتشفتها الجمارك البريطانية في عام ١٩٩٤.

قيل: «إن اللصوص الحقيقيين هم جامعو الآثار»، وهذه عبارة صحيحة تمامًا. يبرر العديد من جامعي الآثار أنشطتهم؛ إذ يزعمون أنه من دونهم لن تُحفظ هذه «القطع الفنية» الجميلة، والمتاحف لا تمتلك الموارد الكافية للعناية بهذه القطع على النحو اللازم. يحمل الرأيان كلاهما وجهًا من الحقيقة، ولكن تفوقهما حقيقةٌ بسيطة مُرة مفادُها أن السوق والأسعار الفلكية التي تُدفع في قطع أثرية لتزيين الشقق في سويسرا أو أرفف المواقد في مانهاتن هي التي تُشبع جشع النهب في النهاية، وهي التي تتسبب في نهب وتدمير عشرات الآلاف من المقابر القديمة والمواقع الأخرى كل عام. حتى المتاحف لا تسلم من النهب الآن، حيث تُسرق القطع الأثرية المعروضة (ولا يمكن عرضها للبيع العلني) ويبدو أنها تكون حسب الطلب، والأرجح أن من يطلبها شخص تعيس أناني معتوه ومصاب بجنون العظمة، من أجل أن يفرح مستأثرًا بها لنفسه، وهو قابع يربت على قطة صغيرة ويحلم بالسيطرة على العالم، أو ربما بتغيير حياته.

الجانب الأكثر إشراقًا وأكثر ديمقراطية في شهرة علم الآثار هو ازدهار مراكز التراث والمتاحف حول العالم التي تضم أجهزة حاسوبية تفاعلية، وشاشات العرض الفائقة

الحداثة الرائعة والتعليمية والمُسلية، والأماكن التي يمكن أن يمارس فيها المرء بعض أنواع علم الآثار التجريبي، وحتى «مراكز الاكتشافات العملية» التي توفر فرصة اللقاء مع علماء الآثار (وإن كان هذا لا يجذب الناس جميعًا في آن واحد). كذلك تُعرض الصور المجسمة في المتاحف الأكثر ثراءً، كما تتطور تكنولوجيا الواقع الافتراضي بحيث تمكِّن الناس من زيارة المواقع التي اختفت من الوجود (مثل دير كلوني الفرنسي في العصور الوسطى) أو التي لا يمكن فتحها أمام السياحة الجماعية (مثل كهفَي لاسكو وكوسكير المزيَّنَين في العصر الجليدي). ولذا في نهاية المطاف، سيُمارَس قدر كبير من السياحة الأثرية في المنزل، من فوق كرسي بذراعين، وهذا سيخفف الضغط على المواقع، على الرغم من أن التوسُّع السياحي وآفاق السياح الآخذة في الاتساع لا تبرح تضغط على مناطق جديدة.

لا تزال كل هذه الأشياء في بدايتها، ولم يُسمع عنها إلا منذ عقد أو عقدين؛ ومن ثَم، في ظل هذا التسارع الهائل للتكنولوجيا الحديثة، لا يُتخيَّل ما يحمله المستقبل من أجل علم الآثار في هذا المجال أو في طرق التأريخ الحديثة أو الاستطلاع باستخدام الأقمار الصناعية أو في الأدلة الجِينية الخاصة بأصول وتطور الإنسان والنباتات التي يزرعها والحيوانات التي يربيها. وكذلك سيزيد الاعتماد على أصحاب الخبرة في المجال. وهنا يسعُنا أن نقول: إن توجه إنجاز المزيد بقليل من الموارد سيستمر (الفصل الأول)، وفي الوقت نفسه ربما يكون هناك تأكيد متزايد على علم الآثار التاريخي في البلدان التي تعترض مجتمعات سكانها الأصليين — أو تحتاج إلى التشاور معهم — على العمل الميداني الجديد من أجل الاكتشافات الخاصة بحقبة ما قبل التاريخ (وهذا ما يحدث بالفعل في أستراليا وبلدان أخرى).

بوُسعنا أن نقول بقدر من اليقين: إن علم الآثار سيقل ارتباطه في المستقبل بقامات العلماء، وسيستمر هذا الحيود عن تلك الشخصيات و«الأسماء الكبيرة» التي شهدناها في القرن الذي نعيش فيه. ولا شك أن التدقيق من داخل المجال سيستمر مع تزايد الوعي بنقاط الضعف في فرضياتنا الأساسية، وبحقيقة أن الشعوب الأخرى لديها مطالب بشأن بقايا ماضيها؛ ستنتشر الأعمال النضالية لبعض الأقليات (الفصل الثامن) بسرعة إلى الأجزاء الأخرى من العالم، مثل أمريكا الجنوبية وأفريقيا. وقد حدث هذا في عام ٢٠٠٧؛ إذ إن المتحف الأثري بسان بيدرو دي أتاكاما في تشيلي — وكانت أشهر معارضه بعنوان «ملكة جمال تشيلي»، وهي مومياء أصلية عمرها ٣٠٠٠ سنة — أزال كل الرفات البشري

شكل ١٠-٢

من العرض بناءً على طلب المجتمع المحلي. وقد وُضع الرفات الآن في منطقة خاصة مغلقة بعيدًا عن مكان العرض. ومن ثَم ربما لم تغادر ملكة جمال تشيلي المبنى، ولكنها احتجبت عن أنظار العامة.

وما دامت بساتين علم الآثار «مثمرة»، وما دامت تتلقى الدعم والتمويل من العامة، فستستمر في الازدهار؛ لأنه العلم «الوحيد» الذي يَدرس ٩٩ في المائة من ماضي الإنسان. فعلم الآثار هو الذي ينبئنا حقًّا عن الأحداث الأساسية التي وقعت في ماضينا؛ مثل: متى وأين وكيف نهضت البشرية في المقام الأول، واستعمار البشر للكوكب، وتطور الفن والتكنولوجيا والكتابة، وأصول وانتشار الزراعة والمجتمعات ذات الطبقات، والتوسع

العمراني. وما تناولناه غيض من فيض المعلومات التي يجتهد الباحثون في دراستها في جميع أنحاء العالم، ولا يزال هناك كثير مما لم يُنجَز بعدُ في كل مجال، حتى نصل في النهاية إلى الصورة الكاملة من أُحجية الصور المقطعة التي تصور تاريخ الإنسان. ونظرًا إلى الرؤية الفريدة الطويلة المدى لعلم الآثار، فإنه الوسيلة الوحيدة كي نرى «الصورة الكاملة». وإذا أردنا أن نعرف إلى أين يسير بنا الطريق، فعلينا أن نرتدَّ على آثارنا قَصَصًا كي نعرف من أين أتينا. وهنا تكمن أهمية علم الآثار.

قراءات إضافية

والآن، إذا أردت التعمق أكثر في عالم علم الآثار الرائع، فإني أضع بين يدَيك مجموعة من الكتب التي تُلبي احتياجاتك وتوجهك إلى مكتبة ضخمة من القراءات الإضافية (لا سيما المراجع المدرَجة في إصدارات رينفرو وبان، ٢٠١٢).

Aitken, M. J. (1990), *Science-Based Dating in Archaeology*. Longman: London and New York.

Bahn, P. G. (ed.) (1995), *The Story of Archaeology: 100 Great Discoveries*. Barnes & Noble: New York/Weidenfeld & Nicolson: London. (Heavily illustrated volume presenting archaeology's 'greatest hits' and something of its amazing diversity and versatility.)

_____, (ed.) (1996), *The Cambridge Illustrated History of Archaeology*. Cambridge University Press: Cambridge. (The history and development of the subject, all over the world.)

_____, (ed.) (2000), *The Penguin Guide to Archaeology*. Penguin: London.

_____, (ed.) (2000), *The Atlas of World Archaeology*. Cassell: London.

_____, (2007), *The Bluffer's Guide to Archaeology* (4th edn.) Oval Books: London. (A humorous introduction to the subject.)

Barker, P. (1993), *Techniques of Archaeological Excavation* (3rd edn.) Batsford: London/Humanities Press: New York. (The best introduction to British excavation methods.)

Brothwell, D. R. and Pollard, A. M. (eds.) (2005), *Handbook of Archaeological Sciences*. Wiley: Chichester & New York.

Carver, M. (2009), *Archaeological Investigation*. Routledge: London.

Coles, J. M. (1979), *Experimental Archaeology*. Academic Press: London and New York.

Courbin, P. (1988), *What Is Archaeology? An Essay on the Nature of Archaeological Research*. University of Chicago Press: Chicago. (A detailed critique of the 'New Archeology'.)

Fagan, B. (1995), *Time Detectives: How Archaeologists Use Technology to Recapture the Past*. Simon & Schuster: New York. (Case studies showing the variety and scope of modern archaeology.)

_____, (ed.) (1996), *The Oxford Companion to Archaeology*. Oxford University Press: New York.

Johnson, M. (2010), *Archaeological Theory: An Introduction* (2nd edn.) Blackwell: Oxford. (A useful student textbook of theory.)

McIntosh, J. (1999), *The Archaeologist's Handbook* (2nd edn.) Thames and Hudson: London.

Purdy, B. A. (1996), *How to Do Archaeology the Right Way*. University Press of Florida: Gainesville. (An American approach to excavation.)

Renfrew, C. and Bahn, P. G. (eds.) (2004), *Archaeology: The Key Concepts*. Routledge: London & New York.

_____, (2012), *Archaeology: Theories, Methods, and Practice* (6th edn.) Thames and Hudson: London and New York. (A brick-like textbook covering all the major aspects of the subject, including everything in this book, in great but readable detail.)

Sabloff, J. A. (2008), *Archaeology Matters: Action Archaeology in the Modern World*. Left Coast Press: Walnut Creek.

Vitelli, K. D. and Colwell-Chanthaphonh, C. (2006), *Archaeological Ethics* (2nd edn.) Altamira Press: Walnut Creek.

قائمة الصور

(1) Cartoon xiii (© Bill Tidy).

(1) Cartoon (© Bill Tidy).

(1–1) Excavation of (*Taylors Low*, Wetton, May 1845).

(2–1) The Sweet Track, Somerset Levels (© John Coles, Somerset Levels Project).

(3–1) Cartoon (© Bill Tidy).

(4–1) Cartoon (© Bill Tidy).

(4–2) Cartoon (© Bill Tidy).

(4–3) Mummified body, Lindow Cheshire (© The Trustees of the British Museum).

(5–1) Cartoon (© Bill Tidy).

(5–2) Frieze of a swimming deer, Lascaux cave, Montignac (© dist. RMN, Paris).

(5–3) Entry to New Grange (© Paul Bahn).

(5–4) Cartoon (© Bill Tidy).

(6–1) Stonehenge, Wiltshire. (Reproduced by permission of English Heritage).

(6–2) Cartoon (© Bill Tidy).

(7–1) Cartoon – The Reality Gap (I) (© Simon James).

(7–2) Cartoon – The Reality Gap (II) (© Simon James).

(8–1) Grave of human skeleton, Mikuleice, southern Moravia (© The Institute of Archaeology of the Academy of Sciences of the Czech Republic, Brno).

(8–2) Cartoon (© Bill Tidy).

(9–1) Altamira cave painting: Standing Bison. Photo (© Michael Holford).

(9–2) Cartoon (© Bill Tidy).

(10–1) Cartoon (© Bill Tidy).

(10–2) Cartoon (© Bill Tidy).

هنداوي